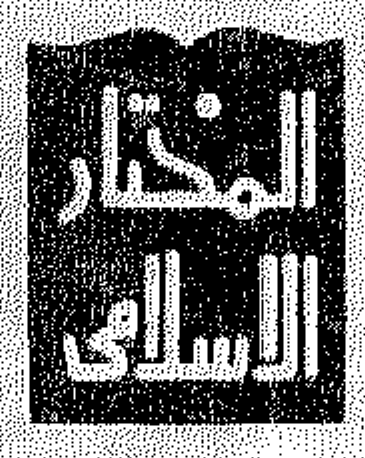


قصص الحيوان في القرآن

أحمد بهجت

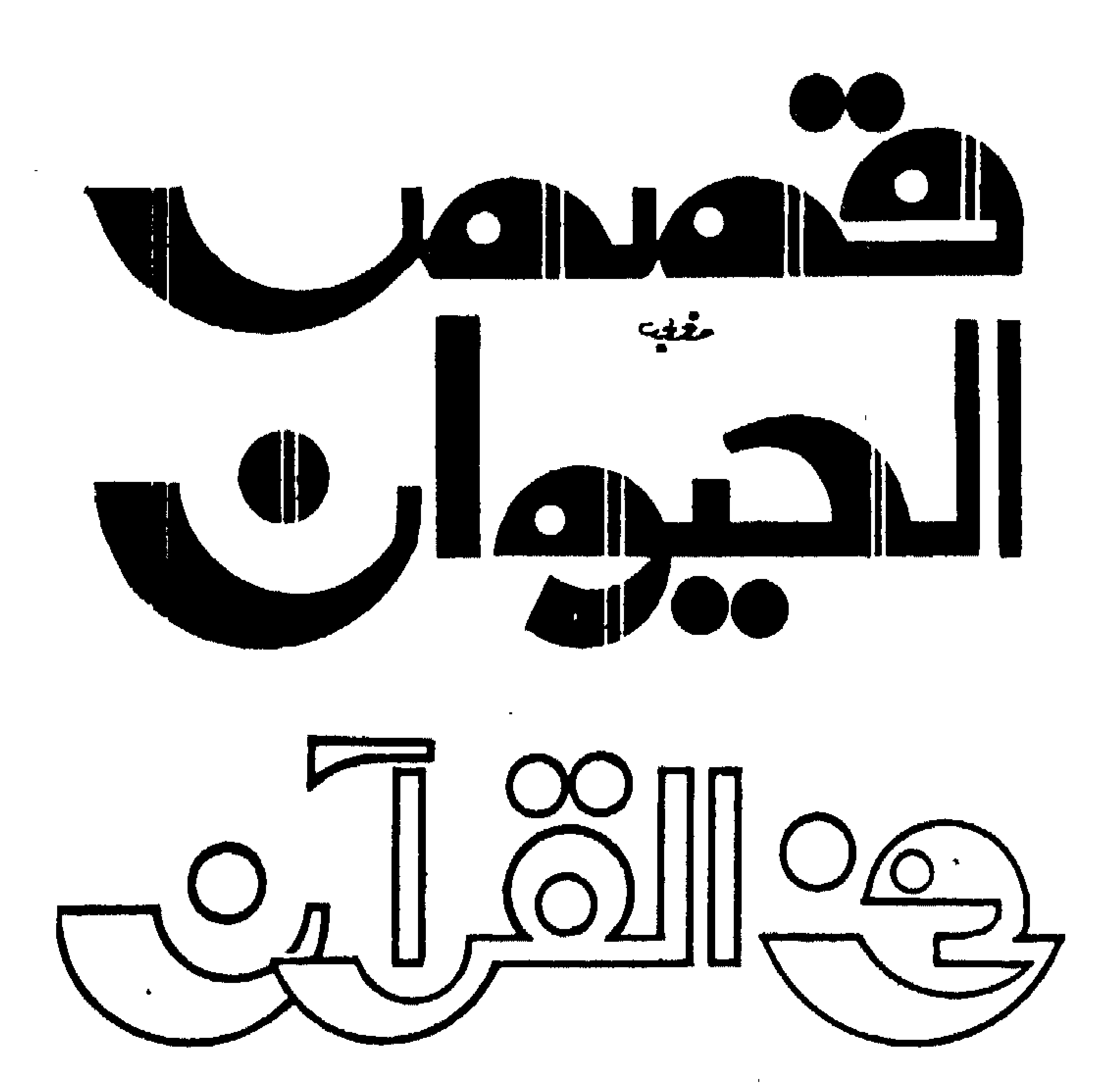


إهـــــــداء2006

ورثة الكيمياني/ محمد فاروق الفران

الإسكندريـة

أحمد بهجت



المختار الاسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ١٧٠٧ ــ القاهرة

الطبعة الثانية
١٣٩٧ هـ - ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى إعجاز القدرة الخالقة في عالم الحيوان

أهدي سطور الكتاب

كل كلمة ركعة ..

وكل حرف سجدة ..

وكل نقطة فناء في الله وحب

أحمد بهجت

المقدمة

يقدم لنا القرآن الكريم فى قصص الأنبياء والأولياء مجموعة من الحيوان الذى لعب دوراً فى التاريخ .

الغراب الذى بعثه الله لابن آدم ليريه كيف يوارى سوأة أخيه .

الطير التى ذبحها ابراهيم وفرقها على قمم الجبال ، وبعثها الله من الموت .

بقرة بنى اسرائيل التى آمر موسى بذبحها لكشف جريمة قتل غامضة .

الذئب الذى اتهم ظلما بالتهام يوسف .

هدهد سليمان الذى أطلعه على نبأ بلقيس .

دابة الأرض التى أكلت عصا سليمان وهو ميت على كرسيه فخر عليه السلام على وجهه .

حمار عزير الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه أمام عينى صاحبه .

الحوت الذى ابتلع يونس فى جوفه زمنا ثم قذفه الى البر لأنه كان من المسبحين .

كلب أهل الكهف الذى نام مع أصحاب الكهف ثلاثمائة عام وتسع سنوات .

ورد ذكر هذه المجموعة من الحيوان فى القرآن الكريم .

وهناك حيوان ورد ذكره فى السنن الصحاح .

عنكبوت الغار التى نسجت بيتها على باب الغار الذى اختبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

. . . .

نحن أمام مجموعة من أفراد المملكة الحيوانية التى لعبت دورها فى الحياة وظهرت على مسرح الاحداث فترة ثم اسدل عليها الستار ، ذكرها القرآن الكريم مجرد ذكر ، أو قص موقفا أو أكثر من مواقف حياتها فى ومضات سريعة ، وبقيت حياتها نفسها غارقة فى الغموض .

فى طفولتى ..

أحببت هذه المجموعة من الحيوان ..

كنت أقرأ قصص الانبياء أو أستمع اليها فلا أستطيع لحداثة سنى أن التقط قمم المعانى منها ، فكنت أكتفى بالتفكير فى الحيوان الذى صاحب النبى أو كان فى خدمته ..

وحين كبرت أكثر .. أخذ حبى للحيوان بعداً آخر .. كل كلب ضال فى الطريق هو كلب أريد أن أطعمه وأربت على رأسه .. من يدرى .. ربما كان حفيداً بعيداً لكلب أهل الكهف .. وكل حمار هزيل فى الريف هو بالنسبة لى مخلوق صديق وحبيب ، لم لا يكون ابنا بعيداً لحمار عزير الذى مرت به تجربة الموت والبعث .

ولقد ظللت طوال شبابى أبحث عن هدهد .. ثم أهدى الى أحد أصدقائى هدهدا نجح فى اصطياده .. وصحبت الهدهد الى بيتى وأطلقته فى فضاء الغرفة ورحت أتامله .. كان الهدهد منكسر النفس لو صح هذا التعبير .. كان الاسر وفقدان حريته يوشك أن يتجمع دموعا فى عينيه .. وقد مات هذا الهدهد فى اليوم الثانى بعد أن أضرب عن الطعام والشراب ، وأتذكر احساسى العميق بالحزن وهو يموت .. لم أكن أعرف ماذا أفعل له وهو يحتضر .. وأخرجت القرآن الكريم ورحت أقرأ له قصة سليمان والهدهد .. وأذكر أن الهدهد رفع رأسه الجميل والتفت مرة أو مرتين وهو يسمع الآيات ثم أراح رأسه وأسلم الروح .. وخيل الى أنه مات راضيا ينصت لامجاد جده البعيد ..

وقد أوقعنى حبى للحيوان فى مشاكل عديدة ..

ما أكثر المرات التى عدت من الطريق وأنا أحمل كلبا صغيراً او قطا أجرب الى أهلى .. ويبدأ الصراع بينى وبينهم ويرفض أهلى

هذا الضيف الجديد الغريب ، وأحاول عبثا أن اقنعهم بأننى سأموت لو تخليت عنه .

كنت زائرا شبه يومى لحديقة الحيوان .

كنت أقف أمام أقفاص الحيوان محاولا كسر حاجز الصمت الذى تلتف به هذه الخلائق ، محاولا فهم ما تريد قوله ولا نستطيع نحن التقاطه ..

وتقدم العمر بكاتب هذه السطور ..

وجاء عليه وقت آمن فيه أن الصدق هو اعظم ما فى الوجود من قيم .. ولقد وجد الصدق كمادة خام فى الحيوان ، مثلما نجـــد الماس خاما فى الأرض لم يصقل بعـــد . أن للحيوان نظرة صريحة مستقيمة ثابتة حين ينظر اليك .. نظرة تخلو من الخداع والكذب والمداراة ، حتى لو كان الحيوان وحشا من وحوش الغاب ونظر اليك ، فانك لواجد فى عينيه رغبة روحه فى التهامك .. لا يدلس عليك أو يخدعك ..

هو الصدق الوحشى العارى ذاته .. وذلك صدق لاوجود له بين بنى الانسان .. واذا كانت وحشية الحيوان صادقة ، فان ألمه أصدق ، وبكاءه أعظم صدقا ، أحيانا يبكى الانسان كجزء من خطة موضوعة .. أما الحيوان اذا بكى .. فذلك هو الالم الصادق الذى يستحيل على أرجاء الكون ألا تهتز له بالتأثر .

وتقدم العمر بكاتب هذه السطور أكثر .

راح حبى للحيوان الذى عاصر الانبياء ينمو فى قلبى يوما بعـــد يوم . كان حبى بغير جسد .. لم يكن ممكنا أن ألمس هذا الحيوان واستبدلت بالجسد أجنحة الروح ، وقرأت كثيرا عن طباع الحيوان وعاداته .

ومن المدهش ، أن القرآن الكريم تنزل منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، وفيه هذه الاشارة السريعة لقصص الحيوان الذى عاصر الانبياء والاولياء .

ورغم ذلك ، فليس هناك كتاب واحد يحكى قصص هذه المجموعة من الحيوان ، لماذا ؟ أى سر يكمن وراء هذا التجاهل ؟

أرقنى السؤال كثيرا .. ثم هديت الى السر .

أيكون السر أن هذه المجموعة من الحيوان كانت تخدم الانبياء والاولياء .

لقد حكيت قصص الانبياء والاولياء فى عديد من الكتب ، ولم يكن ممكنا فى قصص جادة وخطيرة ، يتعلق بها خلاص الانســان وآخرته ، أن يلتفت أحد لهذه الاصوات الضـعيفة القريبة من الارض ، أصوات الحيوان ، أو يتابع مجرى تفكيرها ـ لو كان لتفكيرها مجرى ـ أو يصور لنا دهشتها ـ لو كان ممكنا أن يدهش الحيوان ـ وهى تعيش مع الانبياء وتشهد هذه المعجزات أو تكون هى نفسها جزءا من المعجزات .. وهكذا ظلمت هذه المجموعة من الحيوان وانطفأت سيرتها الخاصة على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان . واذا كانت شدة الظهور تلد الخفاء ، فقد حدث نفس الشىء هنا .

ومثلما يحدث لنجوم الليل حين تظهر الشمس فى الصباح .. حدث لهذه المجموعة من الحيوان .. لم تغادر مكانها ولكن ضوءها ذاب فى الضوء الاقوى .. ذاب فى شموس الانبياء وعلى ســبيل المثال .. لم يعد مهما فى قصــة عزير الذى أماته الله مائة عام مع حماره ، ثم بعثه وبعث الحمار أمام عينيه ، لم يعد مهما فى القصة غير النبى عزير ، أما الحمار فمن يلتفت اليــه أو يفكر فى تأثير التجربة عليه غير حمار من بنى جنسه .

أيضا لم يعد مهما فى قصة يوسف ، وقد ألقى اخوته تبعة اختفائه على أنياب الذئب .. لم يعد مهما فى القصــة غير أحزان يعقوب وأســاه على ولده ، أما الذئب فمن يهتم ببراءته أو يلتفت الى أحزانه غير ذئب من بنى جنسه ..

وما ينطبق على الحمار والذئب ينطبق على الكلب والحوت وبقية الحيوان الذى عاصر الانبياء .

لقد ظلت تجربة هذه المجموعة سرا صامتا يبحث عن لســان للتعبير عن نفسه .. ولقد مات سليمان وداود عليهما الصــلاة

والسلام .. ومات بموتهما من كان يعرف منطق الطير ولغة الحيوان ويستطيع التفاهم معهما .

أحسب أنى غبطت داود وسليمان كثيراً .

لم أغبط سليمان على الذهب الذى كان يغطى به جـــدران قصوره ، فاننى أعلم أن سليمان حين مات لم يصحب معه من هذا الذهب شيئا ، انما ولد عاريا تتقبض أصابعه على الهواء ، وعاد الى الارض وقد تقبضت أصابعه على الهواء .. ولقد أدرك سليمان قبل أى انسان آخر أن الذهب خادم للانسان فالزمه مكانه كخادم ، وكان احساسه به أقل من احستاسه بزنابق الحقول التى تخرج من التراب ..

لم أغبط سليمان على تسخير الجن له .. فاننى لا أحب أن يكون كل جن الارض تحت امرتى ..

لم أغبط سليمان على الاسلام ، فقد تلقيت الاسلام عن شمس الانبياء وأول المسلمين وأكملهم ..

انما غبطت سليمان على شىء واحد ..

هذه القدرة على فهم لغة الطير والحيوان ومخاطبته ..

أن يجلس الانســـان ليحدث هدهدا .. ويامره فيستجيب ، ويناقشه ويستمع ..

أن يبتسم الانسان من كلام نملة تحذر بقية النمل منه .

تلك قدرة تثير دوار العقل والقلب معاً ..

على أى حال ..

اذا كان داود وسليمان قد ماتا .. فان الفن باق الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. ليكن الفن لسانا للتعبير عن حياة الحيوان الذى عاصر الانبياء أو كان فى خدمتهم .

ولا بأس أن يستعين الفن بالعلم فى الجـزء الذى يمس طباع الحيوان وعاداته وسلوكه .. لا بأس أن يستعين الفن بالخيـــال فى الجزء الذى يمس حياة الحيوان ومشاعره وأفكاره .. أما الجزء الذى يتصل بقصص الانبياء .. فتلك حقائق على الفن أن يحنى

رأسه لها ويأخذها كما هى ، بل ان الفن هنا ليشرف كثيرا حين يصير خادما يدعو الى الله بطريقته الخاصة ..

أيقال لنا ان للحيوان غرائز تسيره ، وأنه بلا عقل ..

أيقال لنا ان الحيوان مخلوق أبكم ليست له لغة ..

انقسم العلماء قديما الى فريقين فيما يتصل بادراك الحيوان ولغته ..

فريق يرى أن الحيوان مجرد من الوعى أو العقل من أى نوع .. ورأى هذا الفريق ليس جديدا ، وانما ينحدر من رأى ديكارت .. الذى كان يعتبر مجموع الحيوان مجرد آلات ذاتية الحركة .. اما الفريق الآخر فكان يرى أن الحيوان مهيأ بجميع مميزات البشر العقلية .. ويعرف هـــذا الرأى بمذهب التشـــبيهية الانسانية Anthroponorphism

وهو مذهب قديم لم يبدأ مع نظرية داروان عن نشوء واصـــل الانواع ، بل الى ما قبل ذلك بكثير ..

وقد تاثر كثير من العلماء المشهورين بمذهب التشبيهية الانسانية هذا .. وكتب العالم الالمانى الشهير بريم Brehm صاحب الموسوعة الكبيرة عن حياة الحيوان يقول :

((ان للثدييات ذاكرة وذكاء ومزاجا ، وكثيرا ما تكون لهـــا شخصيات فردية محددة ، كما يمكنها أن تفرق بين الاشياء وأن تعى الفروق فى الزمن والحيز واللون والنغم ، كما أنها قادرة على أن تتعرف على الاشياء وتحكم عليها ثم تتعقل ، وهى تعرف الاخطار وتفكر فى الطرق التى تتجنبها بها ، وهى تظهر الحب والكراهية ، وتحب الاليف والصـــغار ، وتعبر عن الشكر والولاء ، والاحترام والازدراء ، والغضب والرقة ، والمكر والمهارة ، والامانة والخيانة ، والحيوان الماهر يحسب للاشياء حسابها قبل ان يقدم على شىء منها ، والحيوان الحساس الشهم يخاطر بحياته وحريته طواعية من اجل خير المجموع الذى يعيش فيه)) .

هذه كلمات عالم شهير وقف حياته على دراسة الحيوان ..

أما لغة الحيوان فقد ثبتت بشكل علمى قاطع .. مع اختلاف

مدلول اللغة الانسانى عن مدلول اللغة الحيوانى مثلا ثبت أن لكل جماعة من الحيوان أسلوبا للاتصال والتفاهم .. أحيانا بالصوت أو باللمس أو بالرقص أو بالرائحة أو بالاشارة .. المهم أن هناك أسلوبا للتخاطب .صحيح أن العلم لم يحل (بشكل مبدئى ولانهائى) مفردات هذا الاسلوب .. غير أنه ثبت علميا أن هناك لغة للحيوان يستخدمها فى حياته .. وهى لغة لا تشبه لغتنا البشرية ..

هذا الذى أثبته العلم بعد دراسات استغرقت جهد أجيال من العلماء والباحثين ..

أثبته القرآن الكريم منذ ١٤ قرنا من الزمان ..

منذ ١٤ قرنا من الزمان .. كان الحيوان يعتبر شيئا نجسا لا عقل له ولا منطق ولا لغة ولا قيمة .. اللهم الا القيمة التى يستفيدها الانسان منه ..

ثم جاء القرآن بنصوص صريحة تثبت أن للحيوان لغته الخاصة، بل وآراءه الخاصة ..

تامل ما قالته النملة لبقية جنسها وهى تحذرهم من سليمان وجنوده ..

« قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » .

ان النملة تجهل أن سليمان يعرف لغتها ، وهى تجهل أنه يسمعها ويحس بها ، وهى تفترض أن جيش سليمان وجنوده سيحطمون النمل وهم لا يشعرون ..

ان النملة تستخدم فى تعبيرها كلمة « يشعرون » .

هذا دليل على أن الشعور شىء يعرفه النمل ، والا فكيف يستخدم فى لغته ما لا يعرف ..

ثم تامل كلام الهدهد مع سليمان ..

ان الهدهد يقول لسليمان كلاما لا يقوله أعظم الفلاسفة الآدميين العقلاء على الارض ..

ان الهدهد لا يعجبه أن قوم ملكة سبا يسجدون للشمس ..

وهو يسخر منهم ويسأل سليمان دهشا كيف لا يسجدون لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والارض ..

هذا الذى اثبته القرآن منذ ١٤ قرنا من الزمان ، ولم يزل العلم يحاول كشف طرف منه .. هو معجزة تشهد لهذا القرآن بأنه صوت الحق تبارك وتعالى .. كما تشهد للمسلمين القدامى بعظمة ايمانهم وعمقه ، فقد كان التيار السائد على عصرهم أن الحيوان لا ينطق ولا يشعر ولا يعى ولا يدرك ، ثم حدثهم القرآن بعكس ذلك فآمنوا ولم يرتابوا .. وصدقوا بغير طلب للدليل أو بحث عنه ..

. . . .

انبعثت نفسى للكتابة عن الحيوان الذى عاصر الانبياء وكان فى خدمتهم ..

قدرت أساسا أن تكون قصص هذه المجموعة من الحيوان من وجهة نظر الحيوان ذاته وباسلوب المذكرات ..

قلت أستعير عقولها وغرائزها وأحلامها وأحزانها وأكتب مذكراتها مستهديا بكلمة الفنان فان جوخ ..

ـ حين أرسم زهرة .. أصير أنا الزهرة ..

كان شهر رمضان يقترب ، وكنت مطالبا بأن أكتب شيئا لصفحة الدين فى الاهرام ، وقررت أن تكون هذه المجموعة من الحيوان ضيوفا على الصفحة .. لم تكن المهمة يسيرة أو سهلة .. ولكنها كانت ممتعة رغم ذلك ..

ربما كان سهلا أن أتحول الى كلب أو ذئب .. لكن كيف أصير هدهدا .. وكيف أتشكل فى اهاب الحوت الابيض الهائل الذى ابتلع يونس ..

حيرتنى البداية .. ثم هبت نسائم الرحمة الالهية فهان كل صعب .. وسهل كل عسير .. وذابت الاحجار فى قمم الجبال التى عبرها هدهد سليمان أثناء طيرانه وحكت لى قصته .. كما ارتدت موجات صوت كلب أهل الكهف رموزا ليلية عميقة تعيد رواية حكايته ، وحدثتنى قوقعة قذفت بها مياه البحر أنها شهدت حفل التسبيح المهيب الذى أقامه يونس فى جوف الحوت ..

وهربت من القاهرة كلها الى بيت صديق قديم فى الريف .. وهناك عكفت على القراءة والكتابة ، وكان لا بد أن انخلع من حياتى اليومية فى القاهرة وأخلو تماما لما ساكتب ..

وقد اعتمدت على قصص القرآن كمرجع فيما يتصل بالجزء الذى يمس الانبياء من القصــة .. واستقيت معـلوماتى عن طباع الحيوان وعاداته من موسوعة المملكة الحيوانية التى ألفها ثمانية من علماء متحف التاريخ الطبيعى فى جامعة واشنطن .. وفيما عدا ذلك أطلقت العنان للخيال بغير حدود ..

وبقدر ما كانت فترة البحث والقراءة ممتدة وصعبة ، كانت الكتابة نهرا من اليسر والسهولة ، وانقدح فى عقلى أثناء الكتابة أن كثيرا من الحيوان الذى عاصر الانبياء كان رمزا عميقا لقــدرة الله أو رحمة الله أو رمزا لاشــياء أخرى عديدة .. كان جســـد الحيوان جسدا لحيوان واشارة لشىء أخطر ..

. . . .

وحل شهر رمضان وأنا لم أزل أكتب ..

وبدأت أنشر فى جريدة الاهرام مبتدئا بذئب يوسف ..

كان ضيق المســـاحة حائلا دون نشر القصص كاملة ، وهكذا اخترت بعض القصص ونشرتها بعد اختصار يومى كان يجعلنى أشد شعري واصرخ فى المطبعة ..

وأذكر مثلا أنه قيــــل لى وأنا أكتب عن كلب أهل الكهف : اختصر ..

فكتبت فى نهاية قصة الكلب أقول :

« خيل الى أننا ندخل باب الكهف من جديد ، لننام بحق هذه المرة .. خيل الى أن « ناهيش » هناك .. فى هذا الركن المظلم . لن أحكى ما وقع لنا بعد ذلك .. ربما حكيت ذلك يوما فى كتاب .. انهم يقولون لى اختصر .. ليس عندهم كلام الا اختصر .. انني أهوهو غاضبا ، وأريد أن أحكى .. ولكننى أختصر » ..

ومرت شهور ..

وجاءنى « المختار الاسلامى » يطلب نشر المجموعة فى كتاب ..

وعدت الى خلوتى وعكفت على استكمال القصص ..

. . . .

قد يسأل قارئ .

هل هذا كتاب فى الدين أو فى الفن أو فى العلم .

أحسب أن هـذا الكتاب أصـلا كتاب فى الفن ، أن نسيجه الرئيسى فن .. بمعنى الاختراع والتخيل والابداع .. غير أن هذا النسيج الاصلى يمتزج بنسـيجين آخرين هما النسيج الدينى والنسيج العلمى ..

يبدو النسيج الدينى فى قصـة النبى الذى كان الحيوان فى خدمته ، وقد أخذت هـذا الجزء من القرآن كما أسلفت القول واستعنت فيه بتفسيرات المفسرين للقـرآن ، كتفسير ابن كثير وقصص الانبياء وتفسير القرطبى والمنار للقرآن الكريم ، وراعيت الالتزام بأحداث القصة الاصلية كما وردت فى أرجع التفاسير ، ولم أخرج عليها ..

ويبـدو النسيج العلمى فى طباع الحيوان وعاداته التى استقيت من موسوعة علمية .. وقد حرصت أثناء الكتابة على عدم التحرك بحرية فى هذين النسيجين .

أما النسـيج الاصلى للكتاب ... فقد تحركت فيـه بحرية كاملة ، مدركا أن الفن يمنح الخيال حريته بغير حـدود ، وهكذا سخرت من ظلم الانسان لاخيه الحيوان ما شاءت لى السـخرية .. واخترعت أسماء لهذه المجموعة من الحيوان .. وتصـورت مواقف سابقة فى حياتها قبل التحاقها بخدمة النبى الذى التحقت به .. ولم أكن مقيدا فى ذلك الا باطار الفن وحده ..

أحمد بهجت

غراب إبنى آدم



يشيب على الأرض كل شيء باستثناء ريش الغراب .
من رأى ما رأيناه واحتمل .. لا يشيب مهما رأى بعد ذلك .

كمخلوق .. كنت شاهد الاثبات الوحيد فى أول جريمة قتل ترتكب على الأرض .. شاهدت أول دم انسانى يسفك غدرا ، وكنت أعرف أن الله سبحانه يسمع ويرى ويشهد .

كان يوما قانى الرعب ..

أعرف أن الشيطان هو السبب ..

ما أغرب تصرفات الشيطان وما أسهل انقياد أبناء آدم له .

يحب الناس الله ويعصونه ، ويكرهون الشيطان ويطيعونه ، فما أغرب هذا النوع المسمى بالانسان وما أفدح تناقضاته ، وما أعظم حلم الله عليه ورحمته به . ثائر أنا قليلا فمعذرة .

يقول الناس عن الأيام السوداء التى تمر بهم .
ـ كانت أياما أسود من ريش الغراب .

أعرف أن لون الغراب الأسود يثير ضيق الناس ،

رغم ان اعظم الريش سوادا فى جسم الغراب لا يقارب سواد قلب الانسان اذا اسود قلبه .

اعرف أن الناس يسخرون من مشية الغراب ، انه يحجل أثناء سـيره كأى مجنون يمشى على الجمر ، فهو يتواثب ولا يستقر خطوة .

نفترض ان مشيتنا غريبة . ليكن اننا نقفز ونحجل ..

اليس هذا أمرا طبيعيا بعد ما رايناه من ظلم الانسان لأخيه الانسان .

كنا نسير قبل خلق الانسان فنتهادى على الأرض ملوكا بلوننا الأسود ، ومشيتنا القافزة .. ثم شاهدنا اخا يقتل اخاه فاضطربت مشيتنا من الهول ، وورث أبناؤنا عاهتنا وقضى الأمر .

يعتقد الناس أن صوت الغراب بالغ البشاعة .. ولا يكاد أحد من بنى جنسنا يصرخ فوق شجرة حتى يتشاءم الناس ..

قد يكون صوتنا أقل فى جماله من صوت البلبل .. غير انه لا يمت بنسب الى الشـؤم .. الشؤم كلمة إنسانيـة تنطبق على تصرفات ابن آدم .

أحيانا يتصرف الانسان تصرفا رهيبا ، فاذا صرخ غراب فوق شـجرة هناك ، نسى الانسان تصرفه وذكر صـوت الغـراب وتشاءم ! !

حيلة قديمة يلجأ اليها ابن آدم .. وليس كابن آدم مخلوق يستطيع أن يخدع نفسه أو يدلس عليها ..

يتهم النوع الانسـانى جنس الغربان بالسرقة والخطف ، وعقوق الوالدين والأهلين .. يقول الناس عنا اننا نسرق الكحل من العين ونسرق الصابون من أسطح المنازل .. ونحن لا نعرف

ما هو الكحل أصلا .. كما اننا لا نستخدم الصابون حين نستحم .. لا نحتاج اليه ..

اجسادنا وافكارنا فى درجة التلوث القصوى لا تحتاج اليه .

أعتذر عن لهجتى الحادة .

من راى ما رأيته ينبغى ان يفقد صوابه .

قاض أنا فى دنيا الغربان ..

وشاهد فى دنيا الناس ..

يفقـــد القاضى عدله ونزاهته حين يفقد حيـــدته واعصابه وينحاز .

وقد لعبت الدورين معا .. قاضيا كنت فى الغربان .. عادلا كنت ومحتفظا بأعصابى وحيدتى ، فلما هبطت للشهادة فى دنيا الانسان انخلع عنى تاج القضاة وفقدت اعصابى وصرخت .. ثم بعثنى الله لألقن ابن آدم درسا فى الرحمة .

قلت يومها لقابيل ناعيا ناعبا بصوتى الحاد .

ـ نعرف انك وحش قاتل ..

رغم ذلك فانك تجهل ..

رغم انك انسان .. يفترض فيه العلم ..

جاهل يجهل انه جاهل .. جاهل لا يعرف كيف يوارى سوأة اخيه .

لم ازل منفعلا فمعذرة .

احيانا أفكر فيما حدث بهدوء وحيدة كالقضاة .

ان الاعتداء جزء من شيمة المخلوقات .. هـــذا صحيح .. أحيانا يعتدي أحـــد الغربان على الجماعة .. عنـــدئذ تنعقد له محكمة ..

من المعروف عن الغربان أن لها محاكم تلتزم قوانين القسط والعدالة ..

وتدور هذه المحاكمات عندما يغتصب احد الغربان عش غراب آخر .. او يحاول اغتصاب أنثى غراب آخر .. أو يعتدى على طعام الغربان الصغار ..

ولكل جريمة من هذه الجرائم عقوبتها الخاصة ..

فى حالة اغتصاب العش نكتفى بهدم العش المغتصب ونصرخ مؤنبين السارق ونلزمه ببناء عش لمن اغتصب منه العش .

فى حالة اغتصاب أنثى غراب آخر ، تقتل الجماعة المعتدى ضربا بالمناقير .

فى حالة اغتصاب طعام الصغار تنتف الجماعة ريش المعتدى حتى يصبح كالصغار بغير ريش .

واحيانا يضاف الى عقوبة التأنيب او نتف الريش عقوبة الطرد من الجماعة . وتنعقد محاكم الغربان عادة فى أرض فضاء او حقل واسعة وهناك ينتظر الذين سبقوا بالحضور بقية جنسهم ممن تأخر ..

ويستمر الانتظار أياما وليالى الى أن يتكامل العدد ..

عندئذ ننحى المعتدى ونقيم عليه حراسا وتبدأ محاكمته .

يشرع الباقون فى النعيب والنعيق جماعات ..

ويرد المتهم ناعبا ناعقا ..

ويعاود الشهود النعيب ويصفقون بأجنحتهم حانقين ثائرين ..
وينعق الغراب المتهم ويصفق بأجنحته هو الآخر ..

ثم يخفض الجانى جناحيه وينكس راسه ويمسك عن النعيب ..

هذا اعترافه بالذنب ..

عندئذ يصدر حكم القاضى فيثب الغربان فى الحقل على المذنب ويوسعونه تمزيقا بالمناقير حتى يموت ..

ثم تنعب الغربان نعيبا متواليا وتطير ..

يحمل أحدها القتيل لدفنه وموارات جثته ..

قد يكون الغراب القتيل مذنبا ..

لكن للموت حرمة ينبغى معها اكرام الجسد بدفنه ..

وهكذا يعـــدل الغربان فى الحالتين .. فى الحياة والموت .. والعدل فى جنس الغربان اقوى ما فيها من غرائز .. والأصل ان العدل فى دنيا الانسان مكتسب ونسبى ، بينما هو فى دنيا الغربان غريزى ومطلق ..

ثمة قواعد اساسية لا تتبدل ولا تتغير ولا تتطور عندنا . من خرج عليها خرج على الجماعة واستحق نبذه وقتله ..

هذه القواعد والقوانين ليست من وضع الغربان .. انما هى حاكمية خلقها الله فينا واودعها فطرتنا والزم جبلتنا بها ..

لا نشرع القوانين لأنفسنا ..

نعرف أن النفس تميل مع الهوى ، وتنحاز لما فيه مصلحتها ، وترى الخشبة البارزة فى عينيها قشة ، وترى القشة فى عين الغير شجرة ..

تجاوز جنس الغربان هذا كله الى شاطىء الأمان حين استسلم لتشريع الخالق .. ان عمل القانون يستلزم التجرد من الهوى ، واى مخلوق يتجرد من الهوى غير الملائكة ..

يذكرنى الملائكة بأيام الخلق الأولى ..

كانت الأرض سلاما عظيما قبل هبوط الانسان فوقها ..

أمواج البحر عذراء لم تمخرها سفينة ، والرياح نقية لم تلمس جبهة انسان ، والحقول الموجودة فى الأرض كلها لم تطأها أقدام بشر .. لم تزل الدنيا نقية لم تلوثها كذبة واحدة .. كل شيء ينبض بالصدق ..

الجبال تتألق بالثلوج البيضاء تحت أشعة الشمس المنكسرة .. والبحار تتنهد فيرتفع صدرها الأزرق المزبد وينخفض .. ومن الحقول الخضراء يتصاعد عطر ذكي ينتشي به الهواء .. كل شيء بالغ الجمال والسحر ، رغم ذلك كان هناك شيء موحش فى الصورة .. ان شيئا ينقص المشهد ..

ان يدب الانسان على الأرض وسط هذا الجمال ويرفع يديه لأعلى ضارعا لله ويسأل ..

عندئذ يبرز المعنى الحقيقي وراء خلق الجمال المجرد ..

تكتسب الأشياء جمالا أقل ومعنى أكبر حين تعرف وتخطيء وتتوسل ..

هذا شأن المعرفة دائما .. تغتصب البراءة فى البداية ثم تولد المعرفة بعد ذلك .. يتمتع ملائكة الله بالبراءة .. أما الانسان فقد اغتصبت منه براءته فى الجنة .. اغتصبها الشيطان لحكمة أزلية عليا هى تعمير الأرض وسكناها . كنا نعرف أن الانسان قادم من الجنة ..

فى البدء كانت الدموع ..

كان بكاء آدم وحواء على الأرض مشهدا رهيبا فى البداية .. وعرفنا من صوت الدموع قدر الذنب ومعنى العصيان وصدق التوبة ..

كان آدم مقيما فى التوبة ان صح هذا التعبير ..

يا لجلال وجهه المهيب ..

كان فى العينين حنان ابوة يكتسح السدود ولا يتوقف عند ولد دون ولد .. اما حواء فكانت اما لكل النساء على الأرض ..

((ربنا ظلمنا أنفســـنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)) ..

كانت هذه دعوتهما معا لله ..

. . . . . .

وضعت حواء اول بطن لها .

لايبيض الآدميون مثلنا نحن الطيور ، انما يلدون ..

كانت حواء تضع فى البطن الواحد ولدا وبنتا ..

وفى البطن الثانى ولدا وبنتا .. وكان ولد البطن الأول يحل لبنت البطن الثانية ..

ولدت حواء قابيل واخته اقليما ..

ولدت هابيل واخته ليوثا ..

كبر الاخوة معا ..

انحدر هابيل من التل وهو يضحك .. وجهه يترقرق بطفولة أعوامه الثمانية ، ووراءه يندفع قابيل وهو يمسك فى يده بفرع شجرة محاولا ان يلحق أخاه .. يلعبان معا كالعادة ..

لست أعرف لماذا يبدو احد الأخوين رقيقا كزنابق الحقل .. ويبدو الثانى قاسيا كشوك الجبال .. يحدث دائما فى اللعب أن يختار قابيل دور الصياد ، ويختار لهابيل دور الفريسة ، ويحمى اللعب وتلمع عينا قابيل بالكراهية وهو ينهال على هابيل ضربا بما فى يده ..

فى البدء كان هابيل يضحك .. ترن ضحكته بين التلال والأشجار مثل ينبوع يضىء بالصفاء والمرح ، ويقسو قابيل ويمسك فرع الشجرة بيديه معا بدل يده الواحدة .. ويتحول وجه هابيل من السرور الى الألم ، وينتهى رنين ضحكته بما يشبه الصرخة ..

ويهرع آدم اليهما فيجد هابيل جريحا وقابيل ماضيا فى اعتدائه .. ويصرخ آدم :

ـ قابيل .. ماذا فعلت بأخيك هابيل ..

ويرد قابيل ـ نحن نلعب .. وقد اختار هابيل دور الفريسة.

ويصرخ آدم مؤنبا قابيل .. ويفصل بين الاخوين .. يلوم قابيل ويمسح جراح اخيه الطيب .. ويحدثهما انهما شقيقان خرجا من ام واحدة .. ويعيشان فوق ارض واحدة وينبغى أن يجمع بينهما الحب لا الكراهية .. وكان أعظم مايثير دهشتى .. ان قابيل كان يغلق فمه القاسى ولا يدافع عن نفسه .. بينما كان هابيل يدافع عن أخيه ويتوسل لأبيه أن يصفح عنهما معا ..

. . . .

فى العشرين من عمره ..

ارتفعت يد قابيل وهوت على وجه هابيل بضربة قوية وهو يصرخ : هذا كوخى انا .

تركت أصابع الأخ على خد شقيقه علامات حمراء واضحة .. فوجىء هابيل بالاهانة ، واحتدم داخله الغضب وتجمعت فى عينيه دموع سريعة معذبة .

قال هابيل ببراءة ـ أنظر الى يدى .. لقد تسلختا فى بناء الكوخ ..

قال قابيل بحسم ـ لن تبيت فى الكوخ بعد الغروب القادم للشمس .. لقد تكلم قابيل .

رد شقيقه بوداعة ـ يريد هابيل ان يقول كلمة هو الآخر .. انني أحبك ياقابيل فلماذا .. لم يسمع قابيل شيئا .. كان قد غادر المكان ..

لم أر هابيل يحدث آدم بماوقع .. لا اعرف لماذا .. ربما كان يحس أن قلب الأب يمتلىء بأحزان مصدرها تصرفات قابيل ، وخشي أن يزيد أحزانه عمقا ، وربما قال لنفسه أن تهديد قابيل كلمة لا يعنيها .. وحين جاء الغروب القادم للشمس .. فوجىء هابيل بأخيه قابيل يقتحم عليه كوخه وقد تقبضت أصابع يديه على حجر مدبب ..

وقبل أن يفتح هابيل فمه بكلمة ، كان الحجر يشق جبهته ويفجر منها الدم .. وحمله قابيل والقاه خارج الكوخ .. وضمد هابيل جرحه بالأعشاب ونام فى مكانه .. وفوجىء آدم بابنه ينام خارج كوخه .. وفوجىء بدمه المتجمد على جبهته .

وصرخ آدم نفس صرخته التقليدية وان كانت تشرب هذه المرة من حزن أعمق .

ـ قابيل .. ماذا فعلت بأخيك هابيل .

كان قابيل لا يشبه هابيل ..

وكانت اقليما شقيقة قابيل لا تشبه ليوثا شقيقة هابيل .

كان قابيل أقسى من هابيل .

وكانت ليوثا أقل جمالا من اقليما .

وكان المفروض أن يتزوج هابيل من اقليما ، ويتزوج قابيل من ليوثا ..

بيني وبين نفسي .. كنت افضل هابيل على شقيقه ، وكنت مرتاحا لأنه سيتزوج الاجمل .. ان هابيل لا يغضب عندما نأكل من طعامه ..

شاهدنى يوما اقف امام بيض الدجاج الذى يربيه فمد يده وناولنى بيضة .. وسررت من تعاونه مع جنس بسيط كجنسنا .

هذا رجل يدرك حكمة التعاون بين الخلائق ، ويدرك معنى الرحمة ..

هو رجل يعرف الله ، ويحبه ، ويخافه .

اريد ان اركز عقلى لأضع شهادتى على جميع الخرائب والأطلال ، واحكيها للرياح التى تصفر فى اعظم الأماكن وحشة .

صرخ قابيل – لا .. انا خير منه .

كان الشيطان يقف وراء الكلمة ..

قالها ابليس عن آدم ، ويلقنها اليوم لابن آدم ليقولها عن اخيه.

عاد قابيل يصرخ امام ابيه : لن أتزوج ليوثا .. سأتزوج اقليما .. كانت معى فى بطن واحد .. انا أولى بها .

افهم آدم ولده ان اخته لا تحل له ..

رفض قابيل ان يتزحزح عن موقفه .. ادهشتنى جراته ، ولم اعرف كيف يتصرف آدم .

قال آدم : ليقرب كل منكما قربانا الى الله .. من تقبل الله قربانه كان على الحق .

تنحى آدم عن الفصل بينهما وترك ذلك للسماء .

لم أعرف كيف يتقبل الله القربان . ولم اعرف ما هو القربان اصلا ..

انتظرت اياما شغلتنى فيها دنيا الغربان بقضاياها ومشاكلها . كان هناك غراب مغتصب هارب تبحث عنه لمحاكمته .

وجاء يوم تقديم القرابين الى الله .

جاء هابيل يحمل أسمن كباشه ووضعه على الجبل وصلى لله أن يتقبل .

وجاء قابيل بقمح لم يزل اخضر في سنابله .. جاء بقمح لم ينضج بعد .. كان قابيل حريصا وبخيلا الى الحد الذى فشلنا فيه - نحن الغربان - ان نذوق طعامه . قدم قابيل قربانه ومضى ..

وقف الشقيقان بعيدا ..

تمنيت فى قلبى - بوصفى قاضيا غير منحاز - ان يتقبل الله من هابيل .

هبطت من السماء نار أكلت قربان هابيل اشارة الى القبول .. وصرخ هابيل صرخة الحمد والفرح وصرخ قابيل بكلمة القتل ..

كان قابيل يقف وقد مد امامه كفيه وراح يتأمل بنظره نقطة هناك عند الأفق .. ورغم صمته المطبق فقد كانت تنبعث منه موجة من العداء تكاد تحس جسديا .

كان يوما رائعا من ايام الله .. الشمس تنشر دفئها فى الجو ، واشجار الصنوبر الممتدة على طول الأفق تستحم فى أشعة الشمس ، وتأخذ جذوعها لون الكهرمان الذى تقذفه البحار ، ومن الجبال القريبة كانت تهب الرياح وهى تحمل من اعماق الوهاد والشعاب المغطاة بمخمل الغابات الأخضر ، عبير الغابة البكر والزهور الالهية ..

عاد قابيل يصرخ - لأقتلنك ..

لم يدر هابيل سر غضب قابيل عليه ..

لا يدرك النقاء عادة دوافع الاثم وشروره ..

لقد تقبل الله من احدهما ولم يتقبل من الآخر .

قال لشقيقه ان الله يتقبل من المتقين .

عاد قابيل يتمتم - سأقتلك .

رد هابيل وهو يستدير عائدا لكوخه وازهاره ..

« لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما انا بباسط يدى اليك لأقتلك .. انى أخاف الله رب العالمين .. انى أريد أن تبوء باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » .

انصرف هابيل مع زوجته اقليما ..

تزوجا وعاشا أياما ..

حين ظهرت أعراض الحمل عليها كانت نفس قابيل قد طوعت له قتل أخيه ..

عثرنا على الغراب المغتصب الفار وبدات محاكمته ..

استلقى هابيل على الأرض بعد عمل يوم شاق ..

لم يكد يتوسد حقل الزنابق حتى استغرق فى النعاس .

انحدرت الشمس نحو الغرب ..

استمرت محاكمة الغراب الآثم ..

امتلأت السماء بدم الشفق .. وتسلل قابيل وهو يشدد ضغطه على فك حمار عثر عليه فى الغابة .

مات حمار فى الغابة القريبة فأكلت السباع لحمه واكلت النسور ما بقى منه وشربت الأرض دمه وبقى فكه العظمى ملقى على الأرض .

حمل قابيل أول سلاح فى الأرض وراح يمضى باحثا عن شقيقه .

وجده نائما فتحرك نحوه ..

أثاره شىء لست أدريه فى الوجه النبيل الحالم .

استيقظ هابيل وفتح عينيه ..

ارتفعت يد قابيل بالفك العظمى وهوت بسرعة ..

انبثق الدم من وجه هابيل وملأ صدر قابيل ..

عادت اليد الآثمة تهوى على الوجه الطيب ..
وفى الضربة الخامسة .. ارتطمت يد قابيل بطين الحقل ..

سكنت حركة هابيل تماما .. وادرك قابيل أن اخاه قد مات ..
كفت يده عن ضرباتها السريعة القاسية .. جلس واجما امام ضحيته ..

لم ننته بعد من محاكمة الغراب الآثم .. اجلنا المحاكمة للغد .. اقمنا على الغراب حرسا وانصرفنا ..
وقفت على شجرة فوق راس قابيل ونعقت صارخا ..
ـ قابيل .. ماذا فعلت بأخيك هابيل .

رفع قابيل راسه ونظر الى ..

كان وجهه يرتعش ..

. . . .

استغرقت محاكمة الغراب المتهم أياما ..

كان يكذب .. وينكر التهم المنسوبة اليه .. ويجادل .. غير ان تقدم المحاكمة كان يضيق الخناق حول عنقه ، وطوال الوقت الذى استغرقته المحاكمة كان قابيل يحمل اخاه على ظهره ويسير به .

لا يعرف ماذا يفعل بجثته ..

ان النسور تحوم حولهما .. والوحوش تقبل على الرائحة ..

وقابيل يخشى أن يترك آخاه فتلتهمه الوحوش .. ولذلك يحمله على ظهره ويسير ..

لا يعرف ماذا يفعل به .. ولا يعرف كيف يتصرف فيه ..

انتهت محاكمة الغراب وثبتت كل التهم المنسوبة اليه .. واصدر القضاة حكمهم عليه بالموت .
تم تنفيذ الحكم فى الغراب الآثم ..

حملت الغراب الميت لدفنه فى مكان بعيد ..

كنت أطير وأنا احمله فى منقارى حين أحسست أن قدرة خفية توجه اجنحتى نحو قابيل .

لم أكن انوى أن امر على قابيل .. لا احب قابيل ..

لكن اجنحتى تتجه رغم ارادتى اليه ..

ثمة أمر جليل يعلو على ادراكى ويوجه أجنحتى ..

امرنى احد الملائكة الكرام ..

ـ أيها الغراب .. ان الله تبارك وتعالى يبعثك لترى ابن آدم كيف يوارى سواة أخيه ..

هبطت على الفور بحملى امام قابيل ..

وضعت الغراب الميت أمامى ورحت احفر الأرض ..

حفرت الأرض بمخالبى ومنقارى ..

ساويت اجنحة الغراب الميت الى جواره ..

رفعته بمنقارى ووضعته فى لحده ..

صرخت صرختين قصيرتين ، ثم أهلت فوقه التراب ..

بعدها نظرت لابن آدم ..

قالت نظرتى : **قتلناه بالعـــدل** ورغمها نعرف لجثتـه حق **الاحترام** .. إما انت ..

رحت أنعق وانعب فى وجهه ..

بعدها طرت فى الهواء متجها نحو الغرب .

سمعت وأنا اطير مبتعدا صرخة قابيل ..

« يا ويلتا اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فاوارى سواة اخى » . خيل الى أن الصرخة تحترق بالندم ..

لم أعرف من أى نبع كان ندمه يصدر .

أكان نادما لأنه حمله كل هذه الأيام وهو يجهل دفنه ..

اكان نادما لأنه قتله بغير الحق ..

لا أعرف ..

كل ما أردت معرفته هو حال زوجة هابيل ..

ملأنى السلام حين عرفت انها تنتظر الوضع .

اردت أن اطمئن ان الجنس البشرى ينحدر من صلب رجل كريم يخاف الله ..

اعرف ان أبناء قابيل القاتل سيملأون الأرض .. اعرف أن الصراع لن يتوقف بينهم وبين أبناء الشهيد الطيب ..

وربما تكررت مأساة الأب مع الأبناء ..

اعرف هذا كله .. واجهل الحكمة من وراء هذا كله ..

ليست وظيفتى هى المعرفة ..

شاهدا كنت على ابن آدم واستاذا له لحظة من الزمن ، لكن مهمتى ليست هى المعرفة .

ربما كان الانسان يعرف ..



طير ابراهيم



نطير معا فى تشكيل رائع فى السماء .

عائدون فى طريقنا الى الوطن .

ليس وطننا هو البيت الأخضر الذى بناه ابراهيم الخليل ..

وطن الحمام عادة مقسم مجزأ ..

يحمل الحمام نصف وطنه فى قلبه ، ونصفه الثانى فى قلب من يحب .

كنت اتقدم السرب .. فردت اجنحتى ورفعت منقارى لأعلى وانطلقت .. تبعنى سرب الحمام .. حركت اجنحتى ورحت أتمايل .. لو كان الهواء هناء مصفى فاننى اسبح فى هناء مصفى .

حمداً لله ان خلقنى طيرا ..

لست أعرف كيف تحتمل الخلائق التى تدب على الأرض حياتها على الأرض .. فى الطيران الف متعة لا تكشف عن نفسها الا لمن يرتفع ..

من الجو تبدو الحقول الخضراء زاهية الخضرة .. وعلى الأرض تنخفض درجة الخضرة ، ويدخل التراب

عينيك ويضطرك الى البربشة ..

شاهدتها اول مرة فى حياتى فى موقف « بربشة » بعينيها .

حمدا لله ان خلقها لى .

حمامة بيضاء أسمت نفسها « ناشا » .

كان لها اسم آخر قبل أن تقع فى الحب ..

يقوم الحمام بتغيير اسمه حين يحب .. لا يعود الاسم القديم كافيا للدلالة على الذات الجديدة التى تولد بعد الحب .. نعرف أن ذاتا جديدة تولد بعد الحب .

نعرف اسرار الحب كله ..

نحب خالقنا الذى أوجـدنا من العدم .. ثلاثة أرباع الحب نعطيه لله ..

ونحب الهواء الذى يحملنا كما يحمل النغم .. نصف الربع الباقى هدية للهواء ..

نحب الانسان فنطعمه لحمنا بغير ما ألم . ربع الربع الباقى للانسان ..

ويبقى ما يبقى من حبنا للاناث ..

يبقى من حبنا للاناث قدر فى حجم حبة القمح .

يستصغر الانسان حبة القمح ويلقيها على الأرض ..

بينما كل حقول القمـح الذهبيـة التى تطعم الملايين كانت فى الاصل حبة قمح واحدة ..

فى قصص الحب الكبرى لا قيمة لوزن الحب او ضـخامته أو حجمه ..

تكمن القيمة فى القدرة على الاستمرار فيه .. ونحن نحب حتى نموت حبا ..

حين مرضت امى وماتت .. ادرك ابى شيء فاجع غامض مروع ، كنا اطفالا نرى ابى دائم القفز والمرح والحيوية .

حين حملوها من امام عينيه تكس راسه فى الأرض ولم يقل شيئا ..

جاء اليوم الأول وهو صامت لا يطير ولا يأكل ولا يشرب .. كان يفتح منقاره ويغلقه كأنه يقول شيئا ..

وفي اليوم الثانى رقد على بطنه وهو صامت يرفض أن يأكل او يشرب او يطير او يفتح منقاره ..

وفى اليوم الثالث رقد على جنبه وتنهد ، بدا كأنه يحمل جبلا على صدره ..

وفى فجر اليوم الرابع دس منقاره فى جناحه ومات ..

وحين حملوه من أمام أعيننا كان جناحه مبللا كأنه بكى بعد أن مات .

. . . . . .

. . . . . .

كنا اطفالا لا ندرك أن الحب نسيج اصيل فى الكون .

بنى الكون كله على الحب والوفاء والسلام ..

حملت احدى الحمائم غصن زيتون من الأرض لسفينة نوح حين كف الطوفان عن تدفقه واستسلم لأمر الله ..

من يومها صار الحمام رمزا على السلام العميق ..
يعرف الناس عنا ذلك .

غير انهم يجهلون أن الحمام رمز على الوفاء والحب والبعث .
بعث الموتى ..

لا يفهم بعث الموتى غير من يعرف الحب .
الحب ذاته بعث من موت العادة وملل الالفة وانعدام المعنى ..

وحين يخفق بالحب قلب المخلوق يبعث ما كان ميتا فيه ..
كيف يؤمن المخلوق ببعث القلب وينكر قيامة الجسد ..
نعم ..
فى الحب لحظة يستدعى فيها الأحد عباده فينهضون من تراب النوم .
اى قدرة هذه التى تستطيع استدعاء احلام التاريخ من عباءته الترابية .. غير قدرة الحب ..
تعالى الله وتقدس اسمه ..
لم ازل اطير فى الفضاء ..
عائد اليها .. الى ناشا ..
فى البدء سوف امسح منقارى بالمياه التى يضعها لنا ابراهيم ..
اخفض اجنحتى لذكر ابراهيم ..
صاحب بيتنا وبيت الله ..
المسافر دائما الى الله ..
خليل الله ..
كم أحبه ..
يستحيل ان تدنو الخلائق من ابراهيم ولا تتأثر ..
اول من وضع قلبه قوانين توحيد الحب ..
اشعل جسده الكريم كالشمعة ليضىء للخلائق ..
القاه أعداؤه فى النار ، فانطفأت نار الأرض فى نار السماء التى تشتعل فى قلبه ..
لا تحرق النار نارا اعظم منها ..
وليس اعظم من نار الحب ..
. . . . . .
ناشا ..

يدق قلبي حين إذكرها ..
كانت بيضاء ونحيلة .. وكان منقارها عاديا .. ولم يكن في جسدها شيء مميز ..
كنت أجمل منها .. والذكر في الحمام عادة أجمل من الانثى .. غير ان الجمال هنا ليس غير ضعف مستتر .. ان في نحول الأناث وبؤسهن شيء لا يقاوم ..
ليس هناك مخلوق يشبه مخلوقا آخر ..
وناشا لا تشبه اى حمامة ثانية في الأرض ..
ربما كانت اقل الحمام جمالا .. ربما كان في مشـيتها شيء يوحي بالثقة ، وان كان في الحقيقة يخفي انكسارا بالغ العذوبة .. نوع من العذوبة الغامضة التي يستحيل افشاء سرها ..
آه ..
اذكر لقائي الأول معها ..
كانت تبربش ..
دخلت هبة من التراب في عينيها فراحت تبربش ..
فردت احدى اجنحتي احميها من التراب فحيتني تحية رقيقة من ريش ذيلها ..
لم يدر بيننا حوار ..
رفعت راسي بحركة سريعة وادرتها ونظرت اليها . رحت انقل راسي واسير .. حولها اسير .. حولهـا أطوف .. حولهـا أفرد اجنحتي .. حولها اطير فجاة .. أدور .. أدور .. راسي يدور .. قلبي يدور .. وهي تقف في مكانها ثابتة ترمقني ..
اكنت اريها بأسي وقوتي ورقتي في نفس الوقت ؟.
اكنت اغازلها كما يظن الناس ؟.
اكنت احدثها بلغة الصمت الذي يقول أكثر مما تقول الكلمات؟.
لا أدري ..

ربما كنت افعل هذا كله .. وربما كنت اتخبط حولها بغير ان أدرى .

اقول لا أدرى ..

وفى الحب « لا ادرى » هذه اغلبية ..

ما يدريه العاشق عادة هو الصورة التى يرسمها فى نفسه لمن يحب ..

اما الحقيقة .. فتبقى ملكا لله وحده ..

تحدثنا قليلا ..

خيل الى ان الكلمات تنحدر من منقارها كانشاد بلبل او تسبيح كروان ..

اكتسبت الكلمات معانى جديدة لمجرد صدورها منها ..

تحرك نبع السلام القديم الذى حمله احد اجدادى حين عاد بغصن الزيتون فى منقاره .

ذابت كل الثلوج فى قمم الجبال .. وانحنى السحاب على زهور الربيع وراح يمسح رؤوسها ويقبلها .. ولد فصل الربيع داخل قلبى ..

ايكون هذا هو الحب .

سألتها : ما اسمك .

قالت : نوشكا .

قلت : سيصير اسمك القديم بعد لحظات .

قالت : الريح تحمل كلماتك بعيدا فلا أسمعك .

لم اتكلم .

حولها أدور .. أفرد أجنحتى وأثنيها .. أطير عاليا وأنقض فجأة .. حولها اطوف .. بقلب حان وروح عطوف .. حولها ارتعش .. أتخبط .. أطوف .. أدور ..

انتهى اعترافى فأحسست اننى فقدت ذاتى القديمة ..
كنا نتقابل كثيرا فى فناء بيت ابراهيم ..

هو البيت الوحيد الذى كان ينثر الحبوب للحمام ، وينثر الطعام للنمل ، ويفتح الباب للضيوف .. ويذبح اسمن عجوله حين يزوره الملائكة فيحسبهم ضيوفا من البشر ..

كنا اربعة من الطيور قد لجأنا لبيته ..

هى .. وأنا .. واثنان غيرنا ..

نوشكا القديمة صارت ناشا ..

جاءتنى يوما تقول ..

ــ قل لى كيف تريدنى أن أكون لأكون .

وسدت منقارى فى رقبتها وهمست .

ــ لا اريد غيرك . اريدك كما أنت ..

قالت : ولكنى لست جميلة .. بقية الحمام لا يحبنى .. انهم لا يطعموننى ..

قلت : اطعمك نصف قلبى ..

قالت : والنصف الثانى ..

قلت : قد تجوعين مرة ثانية .

حركت رقبتها بزهو ..

سرنا معا على الأرض .. اشرت لها الى حبة قمح بمنقارى .. قالت باحد اجنحتها انها ليست جائعة .. سرنا معا على الشجر .. اشرت لها الى ثمرة فلم تأكلها .. سرنا معا فى السماء .. ارتفعنا قليلا ونحن نسير أو نطير .. لست أدرى .. الهواء خفيف وناعم .. وثمة برودة منعشة تهب من الشمال .. ارتعشت أجنحتنا فجأة ..

قالت : ايكون الهواء قد مر على الثلوج قبل أن يجىء .

قلت : ذابت الثلوج منذ إيام ..

قالت : ولكنني ارتعش .. لا تتركني ابدا ..

قلت : تعالى نلعب .. تعالى ندفىء الهواء .

طرنا ، حركنا اجنحتنا ورحنا نتنفس فى الهواء حتى عاد اليه الدفء .

هبطنا فوق شجرة .. مال الغصن قليلا حين وقفنا فوقه . نكست راسى وتاملت الارض ..

كنت افكر فى ارتعاشتنا معا .. ايكون حبنا يخبىء لنا قدرا من الالم .. ايموت احدنا قبل الآخر .. اعتصر قلبى شىء بارد .. التفتت الى هامسة ..

اريدك جوارى وانا اموت ..

قلت : لم تبدا الحياة بعد ..

قالت : لم يكن الموت محزنا قبل ان اعرفك ..

كانت الشمس فى طريقها الى الغروب .. وبدا الافق مصطبغا بدم يشبه دم الحمام ، وجرى ذهنى للذبح ..

لا اريد ان اذبح الآن .. اريد ان اعيش طويلا

لم ابدا حبى بعد يا رب ..

رحت أصلى لله صلاة طويلة .. وراحت تصلى هى الاخرى .. ثم انكفأنا عائدين الى البيت ..

نامت هى قبلى .. وبقيت مستيقظا ثم لفنى النعاس ..

. . . . . .

. . . . . .

كنت نائما حين رأيت نفسى اطير وسقطت ملطخا بالدماء والأرض زرقاء ..

كنت أطير على ارتفاع شاهق ، أعظم من ارتفاع النسور ..
تحتى سحابة بيضاء ..
تحتى طيلة الوقت ..
رأيت ناسا نائمة فوق السحابة .. حدقت فيها .
لم تكن نائمة ..
فوجئت انها ممزقة الريش والأجنحة والجسد ..
أردت أن أصرخ عليها فتحولت السحابة من اللون الأبيض الى اللون الأحمر .
شربت السحابة دمها وبدأت تمطر ..
نزل المطر دموعا فى حجم حبات العنب الأحمر ..
اردت أن أصرخ .. او أبكى .. او اهبط ..
فوجئت أن السحابة تتبدد .. وشاهدت ناسا ممزقة مفرقة على قمم الجبال .. رأيت نفسى ممزقا جوارها على قمم الجبال ..
كنت أحلم أننى أطير .. وأرانى فى نفس الوقت ممزقا معها على الجبال ..
نصف جنبى الأيسر يلتصق بنصف جنبها الأيمن ..
كل نصف منا يكمل النصف الآخر ..
استيقظت فزعا فوجدتها تتنفس جوارى . حبيبة كما هى .. سالمة كما هى .. صوت تنفسها يطير بعض ريشها عند الرقبة ..
ظللت أتقلب فترة ثم إستغرقنى النعاس ..
تنفس الصبح أخيرا ..
نهضت خائر القوى بعد أحلام الأمس العجيبة ..
طرت قليلا لعلى أنتعش .
طرت بغير أن أنظر حولى .. عقلى كله تحتله صورة واحدة ..

صـــورتنا معا ممزقين على الجبال . توغلت فى الطيران .. مرت ساعات .

فجأة رأيت نفسى قد ابتعدت كثيرا عن وطنى ومسكنى ..

اكتشفت اننى تائه .. ارتفعت الى أعلى .. حلقت عاليا فى الفضاء وبدات اطير فى اتجاه دائرى محاولا أن التقط الحـــدود المميزة للمنطقة التى خرجت منها ..

لم ألتقط شيئا ..

كانت المنطقة التى اطير فيها منطقة جبلية شامخه ..

ارتفعت أكثر وأكثر .. اعتمـــدت على بصرى فلم ألتقط من المعالم التى أعرفها شيئا .. حين يئست من نظرى بدأت احاول تحديد الجهات عن طريق الطيران الساكن ، محاولا أثناء الطيران ان اتصل بخطوط القوى المغناطيسية التى تمتد بين قطبى الأرض المغناطيسيين لم استطع ان أهتدى ..

حين خذلنى البصر ، وخطوط القوى المغناطيسية .. لجأت فى تحـــديد الاتجاه للشمس .. كنت أريد أن أعرف الزاوية بين اتجاه الشمال والشمس .. لو عرفت الشمال لحددت بقية الجهات واتجهت عائدا للشرق ..

استغرقنى تأمل الشمس .

فى اللحظة التى اكتشفت فيها الزاوية التى أبغيها .. اكتشفت فى نفس الوقت أننى أطير وسط جبال تتخذها النسور موطنا ..

هويت من الخوف وسط عش كبير غادره الأب والأم وتركا فيه نسرا طفلا .. كان النسر الطفل أكبر من حجمى مرة ونصف ولكنه كان لا يستطيع الطيران بعد .. ربما ولد أول أمس .. أحس بحركتى داخل عشه فرفع رأسه الأصلع ومنقاره الحاد ونظر الى نظرة حاقدة ..

قلت له دون أن اتكلم : خفف من عـــداء نظرتك أيها الوحش الصغير .. لم يحن الوقت بعد على التهام الحمام .. لم أكد التقط انفاسي حتى القيت نفسي في الفضاء مسرعا وطرت كان ألف نسر عجوز في أعقابي .. طرت مسرعا وزدت سرعتي حتى وصلت الى مشارف ارضي ..

إسرعت نحو بيت ابراهيم .. هويت الى الأرض التقط انفاسي.

وقفت ناشا عند راسي .

قلت لاهثا : نجوت من موت محقق .

قالت : اهدأ الآن .

هدات ..

حركت جناحيها فتموج الهواء حولي منعشا ممتزجا برائحة جسمها .. غادرني التعب واحسست بالعطش ..

إدركت ما اريده بغير أن أفصح ، وهرعت نحو صحن المياه وملأت منقارها وعادت تسقيني . فمها في فمي .. جناحها يلتصق بجناحي . ذهب عطشي الى المياه واشتعل عطشي اليها هي ..

حدثتها بذلك فقالت : تزوجني ..

قلت : تزوجتك ..

قالت : لتبارك السماء زواجنا ..

قلت : وليباركه أعظم قلب في الأرض ..

قالت : خليل الله ابراهيم .

قلت : نطير اليه معا ..

غادرنا فناء بيته الى بيته ذاته ..

وقفنا على سور واطىء يقيمه ليصلي خلفه .

حططنا أمام قدميه وقبلنا قدميه

ارتعش قلبانا بالحب .. ومد هو يديه الكريمتين وربت على رؤوسنا ..

اجفلت حبيبتي وطرنا ..

اجفلت حبيبتي مرة ثانية مني أنا .

وطرنا ..

احتفلنا بعرسنا فى الفضاء ..

دعونا السحاب والنجوم المختبئة فى ضـــوء الشمس ودعونا الشمس والقمر المختبىء فى نورها .. دعونا خلائق الله العظيمة كلها لحفل العرس .. هناء مصفى هو الهواء ..

هناء خالص ..

* * * * * *

كنا اربعة من الحمام نعتبر بيت ابراهيم بيتنا .. ثم صرنا عشر حمامات .. ثم صرنا عشرين .. كان الحب يعبر عن نفسه بآلاف الطرق .. فيزداد عدد الصغار ..

عرفنا الكثير عن خليل الله حين عشنا فى فناء بيته .

كان يصلى كثيرا ، ويدعو الناس كثيرا .. ويتأمل كثيرا ..

ولم نكن نستطيع كطير بسيط ـ فى نهاية الأمر ـ أن نعرف درجة قربه من الله .. أو عمق مشاعره نحو الخالق .. كل ما نعرفه انه كان يخلو بنفسه كثيرا .. فى احدى خلواته ..

كان مستغرقا فى التفكير ثم رفع يديه يسأل الله ..

. . . .

« واذ قال ابراهيم : رب أرنى كيف تحيى الموتى .

قال : أو لم تؤمن

قال : بلى : ولكن ليطمئن قلبى

قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم » ..

. . . .

كانت زوجتى ترقد جوار الصـــغار .. وكنت أجلس خارج عشنا حين امتدت الى يد سيدنا ابراهيم .. استسلمت لليـــد الطيبة .

فى يده الثانية سكين ..

اقترب السكين من عنقى ..

ورحت أتامل انعكاس شعاع الشمس على النصل الأزرق .. آلاف الشموس تنتقل الى النصل وتولد فوقه .

اقترب النصل من رقبتى فازداد استسلامى .

صرخت زوجتى نصف صرخة ..

لم أحس بشىء .

غاص نصل السكين فى عنقى .

آخر صوت سمعته كان صوت صرختها .. بعـدها سمعت ابراهيم يدعونا اليه .

فى اللحظة التالية كنت أطير مندفعا نحو ابراهيم مع ثلاثة طيور اخرى ..

وصلنا الى أحضانه فارتمينا لاهثين مسرعين ملبين ..
سجد ابراهيم لله .

لم أجدها فى العش .. وجدت أطفالنا جائعين وهى غائبة ..
ثرت ثورة كبرى وقررت تأديبها ..

أعرف أين أجدها ..

مكان جوار النهر كنا نلتقى فيه كثيرا ..
طرت نحو النهر ..
زوجتى تقف على الأغصان محدقة فى مياه النهر دون حراك .
وقفت على الغصن جوارها فلم تلتفت .. ماذا أصابها يا ربى .. أتكون مريضة ..

قلت : تاشي .. لماذا تقفين وحدك هنا ..

لم تلتفت .. انحدرت من عينيها دمعتان كبيرتان وقالت :

ـ بدأ عقلي يهتز .. لم ازل اسمع صوته كما كان حيا ..

ادهشنى جوابها .. رفعت جناحي وضربتها به ضربة قوية .. التفتت نحوى ..

لم تكد ترانى حتى صرخت مدهوشة ..

ـ يا الهى .. كيف .. لكنك ..

بدأت ترتعش .. استجمعت قواها وقالت فجأة .

ـ كيف عدت من الموت يا حبيبى .. لقد ذبحك ابراهيم .

ذكرت السكين فجأة .. القيت جناحي حولها لأهدىء من روعها وسألتها .

ـ حدثينى بكل شيء ..

ـ ذبحك ابراهيم امامى .. مزقك قطعا مع ثلاث طيور اخرى وفرق أجزاءك على الجبال ..

قلت لهـــا ـ لم يذبحنى ابراهيم .. لقد دعانى اليه فجئت ساعيا ..

قالت : بل ذبحك امام عينى يا حبيبى ..

قلت : ولكننى حى .

قالت : لا اصدق أنك حى .. آه يا حبيبى ..

انهارت على صدرى ..

اضاء عقلي فجأة بما حدث ..

حدثتنى ناشا ان ابراهيم ذبح أربعة من الطير ومزق اجسادنا ووضع كل جزء منا على قمة جبل ثم عاد الى بيته ..

صحبته ناشا فى رحلته حتى وقفت تبكى على نصف جسدى ،

وتركها الخليـل ابراهيـم وانصرف .. بكت طويلا ثم طارت الى مكانها فوق الشجرة ..

مرت ساعات وفوجئت بى اقف جوارها ..

ظللنا اكثر من ساعة نتحدث .. كان انفعالنا هائلا .. كانت ناشا ترتعد وتقول .

ـ ذبحك أمام عينى يا حبيبى .

وكنت ارتمش واقول ـ بلّ دعانى اليه فلبيت سعيا .

حين اتفقنا اننى ذبحت ونهضت من الموت تساءلت .

ـ كيف ؟ .

استلقت « كيف » امامنا فى مياه النهر مثـل سر لا قرار له ولا منقار له .

قالت ناشا فجأة : الم يقل ابراهيم « رب أرنى كيف تحيى الموتى » .. لقد ترك ابراهيم الجبل وتركك ذبيحا فوقه ثم عاد .. استدعاك فاسرعت اليه ..

قلت لها : لماذا .. ؟

قالت : ربما كان خليل الله يريد أن يرى يد القدرة الخالقة وهى تعمل فاسدل الستار على السر ولم ير غير النتيجة .

يا الهى .. لكن كيف ..

كيف ..

عادت كيف تتموج على صفحة المياه ..

قلت .. اذا كان خليل الله لم يعرف كيف عدت انا من الموت فكيف أعرف أنا ..

عدت أتساءل : اى قدرة هذه التى تستطيع أن تدعو الموتى فيسرعون .

قالت ناشا : هى قدرة الحب .

اتراك نسيت ان ابراهيم خليل الله ..

قبـــل ذلك كاد ابراهيم يذبح احب ابنائه اليه . من يملك القدرة على ذبح ابنه حبا فى الله ، يستطيع أن يدعو الطير الممزق من موته فيسرع ملتئماساعيا اليه ..

هى قدرة الحب فى الحالتين ..

عدت اقول : ازداد حيرة ؟ ما هى الحكمة .

قالت ناشا : ليس عندى جواب يا قلبى ..

كل ما اعرفه يا حبيبى أن الله طمأن قلب ابراهيم وكان يبحث من الطمأنينة .. وطمأن الله قلبك الذبيح بالوحدة .. وطمأن الله قلبى بعودتك الى بعد أن فقدتك .

لقد أعادك الله الى ، وأعادنى اليك ، وأعاد ابراهيم الى نفسه .. ماذا تريد اكثر من ذلك ..

قلت : كم يحب الله ابراهيم ..

قالت : كم يحبنى ويحبك .



ذئب يوسف



ليست حياة الذئاب مريحة .. اشرف بذلك ..

ان تكون ذئبا معناه أن تكون لك أنياب ومخالب . وليس فى الدنيا أحد يخلو من الانياب والمخالب ، كل ما هنالك ان الابتسامة قد تخبىء وراءها أنيابا قاطعة ومخالب حادة ، واذن لا يحمل الناس عليها ، انما يحملون على الأنياب الصريحه .

أنا ــ كذئب ــ هدف لحملات مستمرة من البشر .. هدف لاضطهاد دائم . .

يقــول البشر عن أســوئهم أخلاقا وأكثرهم توددا للنساء انه ذئب . وهذه اهانة للذئاب . نحن كذئاب لا نهتم بالجنس غير شهر واحد من شــهور الســنة ، ولسوف تجد فينا استقرارا عاطفيا وزوجيا تحسدنا عليه آلاف الفصائل الحيوانية الأخرى .

لا اريد ان أطيل فى الحديث عن نفسى كذئب .

اننى أكتب هذه الأوراق وأنا حانق بعض الشىء .. لست حانقا ولكننى مغيظ قليلا . أفتقد العدل تماما فى هذه الأرض وأكره أن أجد نفسى موضع ظلم واضح يستغل فيه الانسان رقيه وذكاءه لظلم الذئاب .

ذئب مظلوم أنا ..

ذئب يوسف .. هذا اسمى الذى اشتهرت به فى التاريخ . غير اننى اقسم اننى لم ار يوسف هذا فى حياتى قط . لا رايته ولااكلته ولا مزقت ثيابه ولا اقتربت منه . هى مأساة من بدايتها الى النهاية .

سقطت عتمة المساء على الصحراء .

انسحب اللون الاصفر مع انسحاب الشمس وتغطت الأرض بلونها الرمادى السابغ .. همد الناس وسكنت حركتهم . ودبت فى الصحراء حياتها الليلية المثيرة . تحركت المخلوقات التى تبحث عن طعامها اثناء الليل وبدات تسعى .

خرجت استنشق الهواء امام باب الكهف الذى اعيش فيه . ملأت صدرى بعبير المساء النقى ..

ما اروع ان يكون المرء ذئبا ثم يقف على باب كهفه ويعوى .

يستحيل على رعايا المملكة الحيوانية نسيان عواء الذئب .

ان صرخة طويلة وعميقة ترعش ظهرك وتدفع فيه قشعريرة باردة كالثلج .. نسمى هذا العواء فيما بيننا اغنية المساء . لا نعوى اثناءالنهار ، مملكتنا هى الليل ، ونحن نغنى عندما يهبط ظلام مملكتنا العظيمة .

لنا ستة أنواع من العواء لكل واحد منها معناه الخاص وتعبيره المميز . هذا العواء العميق الطويل الذى يبدأ مع سقوط الظلام هو أغنية المساء . نقوم فيه بتسبيح خالقنا وتمجيده . وهذا العواء الأجش القصير هو تعبير عن الوحدة واستدعاء الانثى ، وهناك عواء المطاردة المروع الطويل الغاضب .. وهناك عواء يعنى ان صيدا ثمينا قد وقع .. وأجمل ما فى عوائنا أن ينتشر فى الهواء فلا تعرف الضحية كم ذئبا يهرعون نحوها ، ولا تعرف من انتشار العواء حولها مصدر الخطر . وأى حصان أو وعل أو خروف

يسمع عواءنا لابد أن يرتعش ويفقد قدرته على الفرار وتدركه لخمة عظيمة . عندئذ انقض أنا .

ينطلق جسدى الرمادى فى الصحراء مثل قبضة من البرق واضرب .

هى ضربة واحدة بالمخالب .

بعدها يدفىء المعدة طعام ساخن مختلج لم تزل تدب فيه الروح .. جربت مرة ان آكل طعاما طهاه اصحابه على النار وتركوه يبرد . فوجدته للاسف بلا مذاق ، وادهشنى أن يرضى الانسان بهذا الطعام الطرى الذى افسدته النار . اتحدث عن الطعام لأننى صائم .

اكلت منذ خمسة ايام نصف خروف سمين كان يتمشى بعيدا عن بقية القطيع . ناكل عادة مرة كل اسبوع ، ونعيش على ما اكلناه اسبوعا كاملا .. نصوم ستة ايام بغير احساس بالجوع . ثم نبدأ بحثنا عن الطعام ظللت واقفا امام باب الكهف فترة حتى سقط الليل تماما وظهر صديق الذئاب . ظهر القمر .. هذا القرص الفضى الشاحب الذى نرى على ضوئه اصغر فئران الجبال .. لم يكد القمر يظهر حتى رفعت راسى وقدمت له تحيه المساء .. عويت عواء طويلا ..

هى منعة ان نعوى فى ضوء القمر .

ينعكس ضوء القمر على انيابى ويرتد الشعاع نحو ابعد الفرائس فيسجنها بالخوف فى مكانها ويسمرها بالرعب .

بعدها انطلق وراء الشعاع .

رفعت فمى وتشممت الهواء .

استطيع ان امير بين اكثر من اربعين رائحة فى وقت واحد . تختلف رائحة الأرض عن رائحة الاعشاب عن رائحة الأشجار عن

رائحة الوعول عن رائحة الزهور عن رائحة الزلط عن رائحة ...
ما هـذا ..

استطيع ان اميز الآن رائحة خراف . ان غباء الخراف الاساسى انها لا تستطيع ان تخفى رائحتها . لا تستحم الخراف جيدا ولهذا تنتشر حولها فى الجو اريجا مميزا . بالنسبة لنا نحن الذئاب .. تشبه هذه الرائحة بطاقة دعوة توجه لطعام شهى .. خرجت زوجتى من الكهف وتشممت الهواء واستقبلتها نفس الرائحة . التقت نظراتنا فقلت لها :

- امكثى مع الأولاد ودعينى اذهب وحدى .

دخلت ذئبتى الكهف واسرعت إهبط التل . لم اكن خارجا فى مهمة صيد ، نحن لا نخرج للصيد الا جماعات ، لا تقل عن خمسة ولا تزيد على اثنى عشر ذئبا . كنت خارجا فى مهمة استكشاف .. رفعت راسى وانا اجرى ورحت اتتبع ذرات الرائحة . استطيع ان اتتبع الرائحة اثناء الليل بنفس السهولة التى يتابع بها انسان مجرى نهر اثناء النهار ..

اقتربت الرائحة من انفى فتباطأت وبدات أتحرك بحذر .. على مبعدة خطوات تنتصب خيمة بيضاء يجلس امامها عشرة رجال حول نار اوقدوها .. وعلى مبعدة خطوات منهم تنام مئات الخراف والنعاج والبقر .. كان البرد شديدا فأدفأت فمى بذيلى ورحت أراقب .

لم تكن اعمار الرجال متساوية ، كان فيهم من يربى لحيته ، وكان فيهم من يطلق شعره ، ورجحت انهم أصدقاء او اخوة . احسست من نظرة سريعة القيتها على وجوههم انهم يدبرون شيئا. الصقت صدرى بالأرض وكمنت ، رفعت أذنى وانصت .

قال أحد الرجال العشرة وهو يدفىء يديه على النار .

- ينبغى أن نتخلص من يوسف .

اشـــتد البـــرد ، ومرت موجـة من رياح الشـــمال المثلجـة فارتعشت .

لست معتادا هذه البرودة . ولدت وسط جو معتدل فى مصر، وتربيت فيها مع اخ شقيق يصغرنى بعام . وكنت أحب أخى حبا عظيما . ولم اكن أخرج للصـيد الا وهو معى .. ثم خـرج أخى يوما ولم يعد . عبثا حاولت البحث عنه فى مصر . ضربت فى تيه المزارع والصحارى اياما عديدة دون ان أعثر له على أثر . اختفت رائحتـه تماما ، وانكسر قلبى بعـده فخرجت من مصر . عبرت الصحراء وجئت هذه البلاد الباردة . وجدت نفسى غريبا وسط ذئاب من نوع مختلف . فراؤها كان أطول من فرائى قليلا ، عشت بينها وتزوجت منهم ذئبة يبدو أنها كانت عانسا ، ويخيل الى أن السر فى انصرافهم عنها كان شعرها القصير . كانت تشـبهنى فى ذلك .. تزوجتها ففرحت بى أعظم الفرح .

قالت لى يوم زفافنا : من اين جئت . شعرك قصير ولا تشبه ذئاب هذه المنطقة .

قلت : جئت من مصر بحثا عن أخى الأصغر الذى خرج ولم يعد . قالت ــ بحنان صادق ــ : سأكون زوجتك وأخاك الاصغر فلا تحزن .

هزتنى الى الاعماق كلمتها وتذكرت أخى الأصغر فعويت عواء طويلا حزينا متصـلا .. ثم شـغلتنى متاعب الحيـاة الزوجيـة واهالت تراب النسيان مؤقتا على ذكرى الأخ الغائب .. تزوجت فى الربيع .. بعد شهرين ونصف ولدت زوجتى ستة ذئاب صغيرة .. قبل أن تلد بحثنا عن مكان للاسرة القادمة . حفرت معها كهفا غائرا فى الأرض ثم عدلنا عن الحفر قبـل اتمامه وعدنا نبحث عن مكان آخر ، أخيرا عثرنا على كهفنا الذى نعيش فيه الآن . وهو كهف بعيد يحتل قمة تل حجرى وسط الصحراء . كبر الأولاد

وتغير لون عيونهم من الأزرق العميق الى اللون الرمادى المشرب بصفرة ..

ادركت ان الأولاد قد بلغوا .. وبدات اعلمهم الصيد .. ويبدو أن زوجتى عوضت حرمانها قبلى فى انجاب عديد من الأطفال . لا تكاد تحمل وتضع وتربى وترضع وتعلم الصيد حتى تعود الى الحمل والولادة والانجاب .

صرت رب اسرة كبيرة اجرى عليها .. وارهقنى ذلك وجعلنى دائم البحث عن طعام . تسللت الى أنفى رائحة شواء وتسللت معها رائحة خروف صغير حى لم ينم بعد ويسعل من البرد ..

عاد الرجال حول النار الى الحديث .

قالوا ..

« ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة .. ان ابانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين »

ادركت أن هناك مؤامرة لقتل انسان يتردد اسمه فى الحديث. لم أكن مهتما بحديثهم قدر اهتمامى بمعرفة المكان الذى سيذهبون اليه غدا ، أردت أن أعرف أين سيذهب الخروف الصغير المستيقظ الذى أميز رائحته وسط القطيع النائم .

عاد أحدهم يقول : **« لا تقتلوا يوسف والقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين »** .

لم يزل حديثهم يدور حول يوسف . سئمت من الحديث وأدهشنى أن يشغلهم يوسف لهذا الحد .. وعدت أستمع لحوارهم .

قال أحدهم : ماذا نقول لأبينا يعقوب حين يسألنا عن أخينا يوسف ..

اعترف اننى صعقت .. اكتشفت ان يوسف هو اخوهم الأصفر .. كيف يدبرون قتله .. وانا الذئب الذى خرج من مصر بحثا عن شقيقه الأصفر ولم يزل يعيش بقلب ملتاع بعد فقده . اجتذبنى الحديث المثير ، وادهشتنى كمية الحقد فى حوارهم ، ونكأ حديثهم عن اخيهم جرحى وذكرنى بأخى ، وشاهدت الشيطان يجلس معهم وهم لا يرونه فزاد تقززى منهم ، وكرهت رائحة الخروف الصغير ، وكرهت أن آكل من قطيعهم وقررت الانصراف.

لم اكد استدير عائدا حتى عاد الحوار يجذبنى اليه ..

كانت رائحة الحوار مثيرة مثل رائحة قطيع كامل من الوعول والخراف ..

قال احدهم : نقول ليعقوب تاه يوسف منا .

قال الثانى : هذه لعبة مكشوفة . كيف يتوه منا والمفروض انه معنا .

قال الثالث : نقول اكله الذئب .

ارهفت سمعى حين جاء ذكرى فى الحوار .

تصارع القوم بعد هذه الفكرة الظالمة ثم قالوا ..

ـ فكرة مثيرة . نقول اكله الذئب ونحن غافلون عنه .

قال أحدهم : لن يتركم يعقوب تأخذون يوسف . يحبه الرجل ولا يطيق فراقه .. قالوا : سنحاول اقناع أبيه . سنقول له : الولد الصغير لا يأخذ حظه من اللعب ولا يحصل على كفايته من الشمس . وجهه مصفر فاتركه لنا ودعه يخرج معنا ليرتع ويلعب ..

عاد الحوار يدور حول نفسه ويلتف حول النار ويحمل الى احساسا متزايدا بالذهول والدهشة . كانوا فريقين . فريق يريد قتل يوسف ، وفريق يقترح القاءه فى بئر .. ورغم انتصار الفريق الثانى فقد استقر الرأى الجماعى على الصاق التهمة

بالذئب .. اى ذئب .. وراحوا جميعا يتحدثون عن هذا الذئب .. ماذا يقولون لأبيهم عنه . كيف يصفون له مشهد يوسف بعد ان اكله الذئب .. كيف يقنعون اباهم بأن الذئب أكله فعلا .. واقترح احدهم ان يخلعوا قميص يوسف ويلونوه بدماء شاة يذبحونها ثم يحملون القميص الى ابيهم ويقولون له هذا قميص ابنك الذى اكله الذئب وهو يرتديه .

استمعت الى حوارهم وفهمت لماذا ساد الأرض هذا المخلوق المسمى بالانسان . أدركت لماذا يتناقص عدد الذئاب من الأرض ويزيد الناس .

فهمت ان انياب الذئاب ومخالبها تبدو مثل قش هش الى جوار هذه الأنياب والمخالب المتمدينة المغلفة بالابتسام .

عاد الحوار بينهم وهم يأكلون .

قال اكبرهم : افترضوا أن اباكم لم يصدق قصة الذئب .

قال اكبرهم سنا : نصطاد ذئبا ونلطخه بدم الشاة التى سنلطخ بها قميص يوسف ونذهب بالذئب الى ابينا ونقول له هذا هو الذئب الآثم الذى التهم يوسف . هاهو دمه لم يزل عالقا بجسده ومخالبه ارتعشت فى مكانى من الغضب . .اى جراة يملكها هذا النوع الانسانى .

عاد الخروف الصغير يتحرك وسط القطيع النائم ..

انصدت نفسى تماما عنه ، ولم يعد يعنينى الا ان اغادر المكان بسلام . اقتربت منى رائحة كلب .. ترك الكلب مكانه مع القطيع واقترب منهم لعل احدا يلقى اليه بقطعة من اللحم او العظام . ليست الكلاب مثلنا تأكل اللحم نيئا دافئا . يبدو أن الكلب استنشق رائحتى فبدأ يزمجر ويزأر ووقف شعر جسده تهيؤا للقتال .. لم أكن فى حالة نفسية تسمح لى بالاشتباك معه وقتله .. مزقنى حوارهم من الداخل واحتقرت ان اشتبك مع كلابهم وآثرت أن ابتعد عن هذا الجو بأقصى سرعة .

نهضت من مكانى وعويت ..

لم اكد ابدأ العواء الغاضب اليائس الممزق وانهيه حتى كنت هناك عند الطرف الثانى من الصحراء .

عدوت مثل ذئب يفر من الف انسان .

دخلت على زوجتى الكهف فاستيقظت على الفور .. نومها خفيف .

سألتنى هامسة : لونك مخطوف ووجهك متغير .

قلت وانا ألهث : اللعنة .

قالت : هل اخطأت رائحة الخراف ؟

قلت ــ اللعنة

قالت ــ لم أرك غاضبا هكذا من قبل . ماذا حدث . هل حاول اصطيادك احد .

قلت ــ حدث ما هو العن .

قالت ــ لا أظن أن هناك العن من اصطيادك .

قلت ــ بل هناك فاصمتى ودعينى أفكر .

قالت ــ سأل عنك أصغر أبنائك فقلت له ان بابا قد خرج للبحث عن صيد ، تعرف زوجتى اننى ضعيف امام أصغر أبنائى . لم تكد تذكره حتى قررت ايقاظه واللعب معه . ذهبت اليه فرأيته ينام على ظهره وقد رفع سيقانه لاعلى .

مددت فمى ومثلت اننى اعضه فى بطنه فاستيقظ ضاحكا وامسك فمى بأقدامه الأربعة وراح يعضنى هو الآخر .. تقلب على جنبه فعدت الاعبه حتى استيقظ اخوته . ورأيت أننى يجب أن أوزع عليهم اللعب فرحت أداعبهم وأعابثهم حتى اصدرت زوجتى بفمها صوتا معناه :

ــ حان وقت النعاس .

تركت ذئابى الصغيرة على الفور .. واحتضنت الذئاب نفسها . وادفأت روحها بالتصاقها واستسلمت للنوم .

خرجت زوجتى من الكهف ووقفت على بابه .أدركت أنها تريد أن تخلو بى .

خرجت وراءها . سألتني بصوت رقيق .

ــ لم تحدثنى عن رحلتك .

كان غضبى قد هدأ .. قلت لها :

ــ كانت رحلة سوداء . ليتنى لم اخرج .

سألت مندهشة ــ لماذا .

قلت ــ ذهبت أبحث عن صيد فوجدتهم يبحثون عنى .

قالت ــ عنك أنت ..

قلت ــ نعم .

قالت ــ لماذا يبحثون عنك .

قلت ــ لأننى اكلت يوسف .

قالت ــ من يكون يوسف .

قلت ــ انسان لم أره قط .. يريد اخوته القاءه فى البئر واتهامى بأننى أكلته .

قالت ــ أنت لا تأكل اللحم الآدمى .. كيف يتهمونك .

قلت ــ مكررا كلامى ــ المصيبة ان يوسف شقيقهم ..

قالت ذئبتى ــ غريب .. لولا معرفتى بأخلاقك لقلت انك أكلت شجرة من أشجار جوز الطيب ففقدت وعيك .

قلت ــ لست فاقد الوعى .. أنا حزين .. تذكرت أخى الغائب وانفطر قلبى .

ساد الصمت لحظة ، ورايتنى اقول :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى
وصـــوت انســـان فـــكدت أطـير
قالت ذئبتى : ما هذا ؟
قلت : هذا شـعر .
قالت : لم أكن اعرف انك تقول الشعر .
قلت : اقول ما اقول من حرقتى ، حين طفح النيل .
قالت : مواهبك عديدة وحظك قليل يا حبيبى .
قلت : غدا ينسبون هذا الكلام لاحد شعراء بنى الانسان .
قالت ـ الحمد لله الذى خلقنا ذئابا .
قلت ـ هل اكل الأولاد .
قالت ـ اكلوا فلا تقلق .
نكست راسى وتذكرت اخى واغرقتنى موجة من الحـزن .
فوجئت أن ذئبتى تمد وجهها وتضعه جوار رقبتى .
كانت تقبلنى .
قالت بحنان صادق ـ ليتنى ضعت بدلا من اخيك .
قلت ـ حزنى عميق فلا تزيدى عمقه .
قالت ـ ليتنى ذهبت فداءه وفداء لحظة حزنك .
قلت وانا اقبلها ـ لا تقولى ذلك ..
قاطعتنى بقبلة ثانية . وتوسط القمر عرشه فى السـماء ..
وخلت الدنيا من الاحزان والآلام والمتاعب .. لم يعد هناك غيرها وغيرى فى الكون . .
دفنت احزانى فى احضانها ومرت الليلة .
....
عاودت حياتى الطبيعية بعد ذلك ..

تنام الاسرة معظم النهار ، ثم تستيقظ مع العصر .. تطعم ذئبتى اطفالنا من لبن ثديها طالما انهم صغار . فاذا كبروا قليلا اطعمتهم من اللحم الذى تأكله بعد هضمه نصف هضم فى معدتها ، فاذا كبروا اكثر خرجوا فى رحلات الصيد لمعرفة أسرار الذئاب ومهنتهم . فاذا بلغوا أشدهم انطلقوا فى جماعات جديدة للصيد ، بعدها ينطلق كل واحد منهم لتكوين أسرة وانجاب أطفال ، ثم تنضم الاسر جميعا وتخرج للصيد ..

جاء موعد خروجنا للصيد ..

اتفقنا على اللقاء عند باب كهفى ، بدأت وفود الذئاب تجىء . تحيتنا أن نهز ذيلنا ونرفعه عاليا . انتظمنا عشرة ذئاب ناضجة وذئبين صغيرين يخرجان للمرة الأولى .

راقبت الذئبين الصغيرين .

كانا منفعلين انفعالا عظيما . يتحركان فى كل اتجاه ، ويرقصان ويتواثبان ويجريان هنا وهناك . نظرت اليهما وتذكرت طفولتى فى مصر . كنت العب هكذا فى جبال مصر وصحرائها .. مع أخى الأصغر .. تضيع من ذاكرة الذئب كل لحظات حياته وتبقى رجفة الخروج للصيد أول مرة .. تبقى حية طرية فى ذاكرته . لا ينسى الذئب توهجه الأول وهو يخرج للصيد ويتعلم عواء المطاردة . اذكر أول مرة خرجت فيها مع اخى انه قال لى همسا :

ـ انا خائف قليلا ..

سألته ـ لماذا .. هل انت كلب لتخاف .

انفجرت ضحكته وقفز نحوى واطبق بأسنانه على رقبتى وسأل :

ـ تحب أن اريك كم انا خائف ؟ .

وضحكنا يومها كثيرا ، وتواثبنا مثل هذين الذئبين .

كان يوما لا ينسى .

اجتمع شملنا اخيرا وبدانا المفاوضات السريعة .

فى بداية الصيد نناقش الأهداف المحتملة ونختار من بينها أكثر الأهداف صعوبة وتحديا .

قال احدنا ــ هناك مجموعة من الوعول التى ترعى هناك عند الافق .

قال ذئب آخر ــ عثرت على مستعمرة للفئران السمينة . لا يحرسها احد .

قال ذئب ثالث ــ فى اتجاه الغرب رجل يربى ستة من الخيول يحرسها كلبان .

نظرت الى العيون فقلت :

ــ فى اتجاه الشمال خيمة يعيش فيها عشرة رجال يخرجون للرعى ، معهم قطيع من الخراف والنعاج والبقر . تحرسهم ستة كلاب . والرجال مسلحون جيدا .

كان الهدف الذى حددته هو اصعب الأهداف . واستقر الراى عليه .

واتفقنا أن نهجم فى منتصف الليل ..

وانحدرنا مع المساء نحو الصحراء ..

سرت فى المقدمة ، تجرى الى جوارى ذئبتى ، وتتبعنا القافلة الطويلة . يتواثب فى نهايتها ذئبان صغيران .

فقدت الأرض لونها الاصفر ونحن نجرى وسط حقول خضراء تسقط عليها بداية المساء . ثم عاد للارض لونها الرمادى ونحن نعبر منطقة جبلية . . ثم جاء اللون الرصاصي واقتربت رائحة اخوة يوسف .. توقفت أثناء الجرى فجأة فتوقفت القافلة كلها وراحت ترهف السمع .

سألتنى زوجتى هامسة :

ـ لماذا توقفت .

قلت هامسا ـ اشعر بالتشاؤم .. واحس اننى لن اراك بعد الليلة .

ابتسمت عيناها ابتسامة واسعة مشجعة فعدت اعدو نحو الهدف .

بدانا زحفنا الحذر حين اقتربنا من الخيمة .

كان الأخوة العشرة ينامون فى سكون خارج الخيمة ، ولم تكن هناك كلاب . كيف تركوا الماشية بغير حراسة اذن .. ادهشنى ذلك واثار ريبتى .

قلت للذئاب ـ انتبهوا جيدا فاننى اظن ان هؤلاء النائمين ليسوا نائمين .

قالت زوجتى ـ تنتابك الهواجس اليوم يا حبيبى .

قلت ـ ربما كانت هناك فخاخ منصوبة ، لن نخسر شيئا من الحذر .

كان الذئبان الصغيران الطائشان قد تقدما اكثر مما ينبغى نحو الماشية . واحست الماشية بالخطر فاستيقظت فزعة وبدأت تخور وتضطرب .

جريت أحضر الذئبين الصغيرين فلم الزم الحذر . نصحت قومى به ونسيته . لم أدر دورة كاملة وانما سرت فى خط مستقيم . لم أكد أتقدم قليلا حتى انطبق على قدمى الخلفية فخ قوى .

بكيت حريتى فى عواء طويل وانتشرت شرارة الكهرباء من فمى لفم الذئاب فتمزق الهواء بصوت العواء المعول الصارخ .

وحدث كلّ شىء بعد ذلك بسرعة .

قفز الرجال من تحت اغطيتهم الصوفية وأطلقوا سهامهم على

الذئاب فانطلقت مبتعدة تعوى ..
واقبل الرجال العشرة نحـوى بالعصى والحبال . وانهـالت على جسـدى العصى والقيت على الحبال وراحت تلتف حولى حتى سكتت حركتى تماما .

اخـــيرا وقعت فى الاسر .. وطافت بذهنى صـــــورة اخى الغائب .

ادركت كيف ضاع .. اضيع مثلك يا اخى فلا تحزن ..

عويت عواء ضعيفا يتضمن الأمر بابتعـاد اسرتى عن المـكان وتركى للأقدار .

وردت على زوجتى بعواء ممزق صارخ يتلوى .. افهمتنى فى عوائها انها قادمة لانقاذى ، وليكن ما يكون .. وعويت عليها أن تنصرف لتعنى بالأولاد .. أوصيتها بأصغر ذئابى كثيرا ، وابتلعت الصحراء أصداء العواء .. عاد الصمت الى الرمال فوجدنى ملقى على الأرض مقيدا بالحبال .

رفعت راسى وتأملت مـن اسرنى .. هم اخوة يوسـف بغير جدال . اطمأنوا لاستسلامى وربطوا اقـدامى فى فرع قوى مـن فروع الأشجار وحملونى مدلى منكس الراس نحو قريتهم .
قال إحدهم بفرح : سنقول ليعقوب هذا هو الذئب الذى اكل يوسف .

ارتفعت أناتى حزينة شاكية فضحك الرجال وقالوا :

ـكأن الذئب يفهم ما نقول .

توقفوا فجأة وقالوا : كيف نثبت له أن هذا هو الذئب القاتل.

تشاوروا قليلا ثم ذبحوا احد الخراف ولوثوا مخالبى بدمه ، كما لوثوا فمى بدمه . وكان فمى جريحا فأضيف اليه دم جـديد لاثبات المهزلة..سرنا طويلا حتى شارفنا قرية صغيرة تنتشر حولها الرمال الصفراء والأراضى المزروعـة ، احسـست بالعطش ونحـن نسـير حذاء نهر فلسطين .. دخلنا قرية تضيئها مصـابيح الزيت

.. قلت لنفسى وانا استنشق رائحة الزيت ، هذا زيت زيتون .
ضـــاق الطريق وتعرج وتصـــاعدت رائحة الطعـــام المطهو فتزايد احساسى بالبؤس .

تصايح اخوة يوسف حين وصلوا لبيت ابيض تحيطه حديقة مشجرة .. حفظت الطريق جيدا خلال الرحلة الفاجعـــة .. من يدرى ..

نقر الاخوة الباب فانفتح عن ثلاث نساء ..

تصايحت النساء فزعات حين راينني وهرعن الى الداخل .
دخلنا البيت .

ملأ قلبى احساس غامض بالسلام .. بيت من هذا ياربى .

القانى الاخـــوة على الأرض امام شـــيخ أبيض اللحيـــة مهيب الملامح .. ضربتنى الأرض بقسوة فعدت أئن .

قال أحد الأخوة للشيخ الجليل :

ــ هذا هو الذئب الذى يحل بغنمنا ويفترسها .

قال احدهم : هو نفسه الذئب الذى اكل يوسف . اصطدناه اليوم .

اكل منا يوسف أول أمس وعاد الينا اليوم ..

قال صوت احدى النساء : انظروا دماء يوسف على مخالبه وفمه .. اقتلوه الآن قبل ان يفيق من اغمائه .

كنت أتأمل عينى الشيخ واحدق فى صفائهما واسبح .. هذا هو يعقوب اذن .. ادركت انه نبى من أنبياء الله . ملأنى احساس عميق بالراحة حين قال الشيخ لأولاده .

ــ دعوا الذئب لى . وانصرفوا .

قال أحد الأخوة وهـــو ينسحب : احـــذره يا أبى فانه ذئب غادر .

خلت الحجرة من غيرنا .. وبقينا معا يعقوب وانا . اقترب مني يعقوب وفك وثاقي واطلقني حـرا .. وقفت أمامه وحنيت راسي ورفعت ذيلي احييه .

قال يعقوب وهو يخرج قميصا ملوثا بالدم .

ـ هذا قميص يوسف أيها الذئب .

فاضت عينا الشيخ وهو يرمي الى قميص يوسف .

ـ حدثوني انك أكلته وألقوا الى قميصه الملطخ بالدم .

شممت القميص وتأملت نسيجه فوجدته سليما بغير خدش واحد . رفعت عيني الى الشيخ وقالت نظراتي .

ـ أيها النبي الكريم .. كل الذئاب بريئة من دم ابنك .

قال الشـيخ ـ أعرف أيهـا الذئب .. اعـرف ذلك . كيف يفترس الذئب يوسف ويظل قميصه سليما .هو خطئي انا أيهـا الذئب .

قلت حين أراد أخوته أن يصـحبوه : أخاف أن يأكله الذئب وانتم عنه غافلون .. قدمت خوفي منك على حفظ الله له ورعايته فاصـابني ما ترى .. عاقبني الله تعـالى ، وضـاع مني يوسف وجاءوا بك بدلا منه .

قلت بعيني ـ لا أفهم يا سيدي ما تقول .. هذا كلام كبير .
قال يعقوب ـ ادن مني أيها الذئب .

دنوت منه ..

عاد يعقوب ينحني ليلتقط قميص يوسف وهو يقول : ادن مني أيها الذئب ..

رحت ادنو منه حتى الصقت خدي بخده وبكيت مثلما بكى ..
مد يعقوب يده وربت بهـا على رأسي فبرئت جراحي جميعـا ..
سألني بصوته العميق الحزين .

ـ اين ذهبوا بيوسف . وكيف عثروا عليك .

قلت له : لست اعرف ماذا فعلوا بيوسف . سمعتهم يتحدثون عن القائه فى بئر . لكننى اقسم لك ايها النبى اننى ذئب غريب جاء من نواحى مصر فى طلب اخ له خرج ولم يعد . اصطادنى أولادك وأوثقونى وجاءوا بى اليك . نحن لا نأكل لحم البشر أيها النبى .. حرمت علينا دماء الأنبياء أيضا . ليتنى لم أخرج من مصر بحثا عن أخى .

قال يعقوب وهو يضم قميص يوسف الى صدره .

خرج الذئب يبحث عن أخيه ، وضيع ابنائى أخاهم يوسف .
قلت : ايها النبى الكريم .. اطلق حريتى لأعود الى مصر . لن أعيش فى ارض يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش .

عاد يعقوب يربت بيده على رأسى .. ثم نهض وفتح غرفته لى .

انقض ابناؤه على بالسهام والحراب والكلاب وهم يصرخون .
ـ أطلق ابونا الوحش ..

قال يعقوب : « **بل سولت لكم انفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** » .

قفزت خارج البيت وانطلقت أجرى .

جريت بنصف قوتى وتركت نصفها الثانى بقعا من الدماء على الأرض .

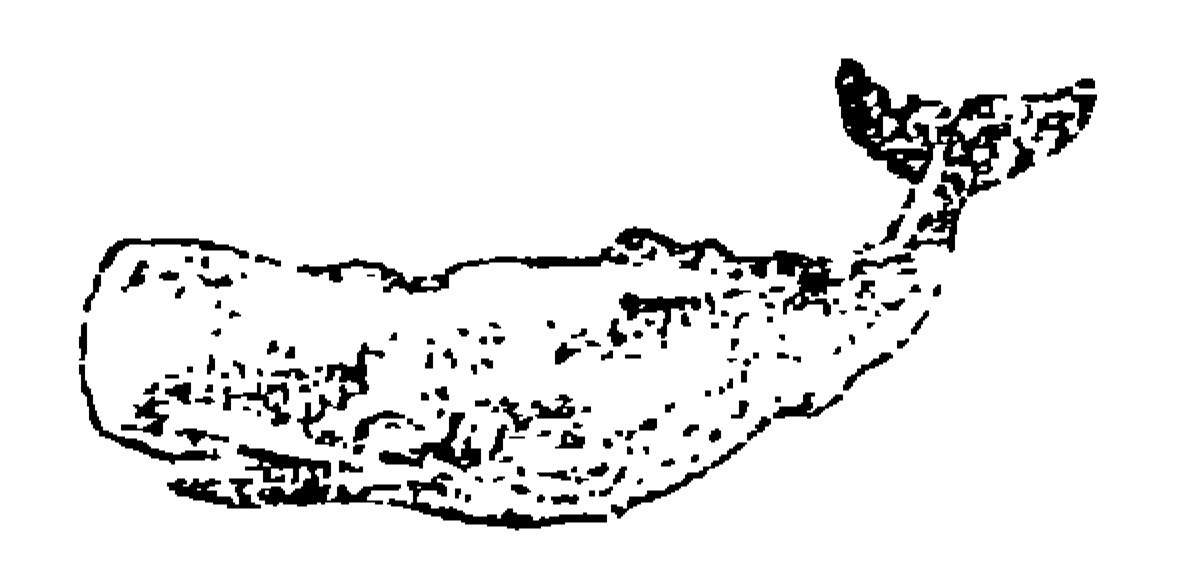
اصبت اكثر من اصابة قاتلة لكننى اجرى بعيدا عن القرية .
لا أريد ان اموت هنا ..

خرجت الى الصحراء العريضة واذا بالارض تدور فجأة ..
دارت الأرض حتى وقفت بكل ثقلها على رأسى ..

واشتد دوران الأرض .



حوت يونس



استدرت راسما حرف النون فى المياه .

قوست جســـدى وضربت المحيط بذيلى فارتـــج الهواء منفجرا كهزيم الرعد ، واندفع من المياه شلال لأعلى بعد ضربة الذيل .

والأصل أن ينحدر الشلال الى أسفل ..

كل شيء على الأرض ينحدر الى أسفل .. تنفس الخلائق وسقوط الثمار وانهيار الشلال ..

وفى البحر يتنفس الحوت العظيم لأعلى ، ويصنع من المياه شلالات لأعلى ..

استبدل الحوت بيديه القديمتين نافورته الأمامية وضربات ذيله الخلفى .. وكل شلال يندفع لأعلى من الحوت يد مائية تمتد لخالق المياه بالتسبيح .

ضربت الموج بذيلى ضربة ثانية ، ورحت اتســـمع صوت الانفجار الثانى والريح تحمله ليذوب مع صوت الانفجار الأول عند الأفق .

أعرف أن لطمتى للمياه تسمع على امتداد أميـــال وتصيب الآلاف من حيوان البحر واسماكه بالرعب ،

غير ان هذا شأن القوة حين ترتعد فرقا أمام خالق القوة .

اعتى جبابرة البحر فى البحر انا .. واضعف من مياه منسكبة أمام الله .. اعرف أننى وحش المياه المتوج على الموج .. صنعت تاجى من زيد الصدق الأبيض واعشاب الحقيقة الخضراء ، وليس كالصدق والحقيقة قوة حين نتحدث عن القوة .. توجتنى على المياه قدرتى على الانطواء الذاتي فى قلب الأبعاد الزرقاء التى لا قلب لها .. ومنحتنى هذه القدرة ،قدرة اجهل كنهها وان كان كيانى يسجد لها ..

حركت ذيلى وانطلقت .

كل مياه المحيطات والبحار حجرتى الخاصة ، واللون الأزرق الممتد تحتى أوراق اخط فيها قصتى ، وليس مثل الكتابة على الماء او السير فوقه آية ، لا يسير على الماء غير الأنبياء ، لا يسير على الماء غير الصدق ، أما البر فكم من الأكاذيب الترابية تدب فوقه .. ايضا تبقى الكتابة على الحجر ندوبا ظاهرة لكل من ينظر ، اما الكتابة على الماء فيلتئم عليها الماء ويغوص السر فى البحر دون ان يخلع اقنعته .. وبذلك يبقى للسر نصيبه من اسمه فى المياه .. وهنا تكمن عظمة المياه المستعارة . .

قلت عظمة المياه المستعارة .

وكل خلائق الكون العظيمة تستجدى من بهاء العظمة السرمدية .. تدرك خلائق الكون العظيمة فى قرارة نفسها انها صائرة الى الموت . كلها باستثناء الانسان .

وحده الذى ينسى .. وحده الذى يتأله .. وحده الذى يدور بغرور الخلود راسه .. لو كان فمى الوحشى يستطيع أن يضحك هازئا لفعلت . لا اضحك .. لااعرف غير تقطيب الجد المتجهم .. لا احب الانسان .. وكل الحيتان لا تحب الانسان ..

عداء قديم له قصة ستجيء فى موضعها .. عفوا ..

يفور دمى حين اذكر الانسان فأهوى فى المياه لأبعد الاعماق ثم اضرب المحيط بذيلى واندفع خارجا .

ها هو سطح البحر .

اقفز من السطح لأعلى نحو السماء . قفزة جبارة مثلى .

هذا سجود الحيتان . يهوى النـاس سجودا نحـو الأرض وتهوى الحيتان سجودا نحو السماء .. اليست ارضنا سـماء المجرة .

اسبح فى بحار الشمال حيث لا تطرف عين الشمس ولا تغرب. ارى الشمس من مكانى قرصا اصفر سقط فى مياه خضراء ..

هـذا العـرى المتألق للشـمس - المنطفىء فى الميـاه ، يوحى بالوحدة .

وليس كالوحدة رفيق للعظماء .

وليس فى عظمة حوت العنبر احد .

ومن بين كل حيتان العنبر السابحة فى المياه ، وقع اختيـار القدرة الخالقة على شخصى لابتلاع يونس .

لم اكن اعرف .. عرفت بعد التقامه انه نبى ..

كانت اقسى تجربة فى حياتى المائية المديدة .. اعترف بذلك

ليس هناك حوت يتجمع العرق على جبينه حبات ..

ليس هناك حوت يبكى رقة وحبا .

تجمع العرق على جبينى وبكيت ..

كنت أحاذر أن يرانى وحش من وحوش المحيطات وأنا أبكى.. ان هيبتى فى المياه عرش قديم لم يخدش . ولم أكن لأتركه يخدش.

ان جسـدى الذى يزيد طوله عن طول جزيرة متوسطة ،ووزنى الذى يصل الى مائة الف صخرة .. واندفاعاتى فى اعماق الميـاه

بعد ذلك . . هذا كله يكفى لجعل أخطر أسماك القرش الوحشية تندفع هاربة حتى تحطم جسدها فى الصخور خوفا ورعبا .

ورغم ذلك بكيت . .

لا اريد ان اقفز الى النهاية . .

هزنى ما حدث الى حد الانفعال فمرضت . .

بدأت امعائى تصنع العنبر . لا تصنع الحيتان العنبر الا اذا مرضت وأشرفت على الهلاك . .

راسى يدور وذيلى يتحرك نصف دورة فأندفع .

على الماء اكتب .

المياه تلتئم على السر فأكتب .

. . . .

حين كان البحر طفلا لم يتجعد جبينه بملايين السنين والامواج كان اجدادنا يعيشون على الأرض . .

فى مكان ما من جسدى الهائل .

فى نقطة ما من عقلى المخبوء . .

وفى نقطة تختفى وراء عرش من الزيت . . وتقع بين اللحم والدم والاعصاب ترقد صورة قديمة . .

أرض رمادية مضببة .

يتصاعد من البراكين فيها بخار ارجوانى يختلط باللون الاصفر تدب على التراب اقدام الديناصورات وأقدام اجدادنا . .

كان اجدادنا وحوشا اعظم حجما من الديناصورات . . وكان الديناصور قد بدأ ينقرض من الأرض . .

كان حجمه هائلا . . وعقله صغيرا . . ورغباته كثيرة . . ولم يكن قادرا على التكيف وسط ظروف الأرض المتغيرة . .

وكان اجدادنا يقاسون من نفس المأساة . .

كانت الأرض تهيأ لاستقبال جنس جديد يسمونه الانسان .. وكان هذا الجنس غيرمعروف لنا على وجه التحديد .. كنا نسمع عنه كلمات غامضة مثيرة .. وكانت الملائكة تتحدث عنه باحترام وحب ، وكان اقتراب هبوط هذا الجنس على الأرض يحمل نذيرا بهول غريب لكائنات الأرض الوحشية .. لا احد يدرى ماذا أصاب وحوش الأرض حتى اشتعلت بغضب هائل واندفعت تقتتل وتسفك الدماء .

لم يعد باقيا من الوحوش البائدة غير جنس آباء الحيتان وامهاته . كنا اعظم الوحوش حجما فكسبنا المعركة ..

امتلأت الأرض بالدماء والخرائب .. وهرع اجدادنا الى البحر جماعات جماعات .. نظروا الى الأرض وادركوا ان حياتهم فيها لم تعد ممكنة .. خلت الأرض من الوحوش المنافسة ، خلت من الطعام .

وبدأ اسلافنا يقفزون فى المياه .

لم يكن امامنا غير حل من اثنين .

ان نبقى على الأرض ونهلك جوعا . او نقفز فى الماء وننجو ..

وقفزت آلاف من أسلافنا فى المياه .. كانت لنا أيد واقدام ورؤوس وانوف .

يتصور الناس ان الحوت سمكة .. ليس كهذا القول اهانة لجنس الحيتان .. دم الأسماك بارد ودمنا حار ..

نحن حيوانات ثديية عشنا على البر فى عصور ما قبل التاريخ ثم لجأنا الى البحر لنخلى الأرض للانسان .

عفوا .. دمى يفور كلما ذكرت الانسان .. اغوص فى البحر حانقا مندفعا .. قيل لاسلافى وهم يقفزون فى البحار :

ـ طوبى لك أيتها الكائنات العظيمة . .

تصيرون ملوكا للبحر لا ينازعكم عليه غير الانسان ، يطاردكم أحياء وأمواتا . بعد موتكم تصيرون عطرا لعدوكم ، وزيتا لقناديله وطعاما لأطفاله ، ودواء لأمراضه .

لم يكن هبوطنا فى البحر هبوط اهانة . على العكس من ذلك.. كان هبوط كرامة .. تماما مثل هبوط الانسان الى الأرض .

ان حجم المياه إكبر من حجم الأرض اربع مرات .. وفرصتنا فى النمو أكبر من فرصتنا على الأرض اربع مرات .. وطعامنا اكثر اربعة أضعاف .. غير اننا تهبط الى البحر وقد انفرس فى أعماقنا الصراع الوحشى ضد الانسان .. وشيء من الدهشة فى نفس الوقت .

كان هذا منذ ملايين الملايين من السنين .

خلالها لم تعد لنا حاجة لايدينا .. تحورت أقدامنا ورؤوسنا وانوفنا .. صار وحوش الأرض القدامى هم حيتان البحر الآن..
حدثتنى خلية فى جسد أمى بكل هذه الاسرار قبل أن أولد .
لست اذكر اين ولدت .. أذكر وجه أبى ..

كان رهيبا بوجهه الأبيض وحردبته العالية وذيله الجبار .. طوله ٩٠ مترا ونصف متر، أمى هى زوجته الثالثة .. لا يزيد طولها على ٢٥ مترا ، حسناء رشيقة ، لونها يميل الى الرمادى الفاتح .. كانت اما مثالية . لم ار امى تبتسم ابدا .. لم ار ابى يضحك ابدا ..

سألت : لماذا لا تبتسم الحيتان ؟

قال أبى : اخرس .. كيف تبتسم أعتى وحوش البحر ..

نظر أبى لأمى نظرة حانقة بطرف عينه وقال .

ـ جاء ابنك رقيق المشاعر مثلك فعليك الغضب ..

اخذتنى امى الى البحر مبتعدة عن ابى وهمست لى :
ـ أنت وحش يا حبيبى فلا تخذل ماما وبابا .

كانت طفولتى بهيجة .. لولا نظرات ابى وتعليقاته الوحشية .
حين ولدت كان طولى يزيد قليلا على عشرة امتار ونصف متر .. دار ابى حولى متفحصا وقال لأمى : لا بأس بطوله .. يعجبنى لونه الأبيض .. ارجو أن يأخذ طباع ابيه .

قال تعليقاته ومضى يغوص فى المياه ..

كانت طباع ابى معروفة فى المحيطات كلها . اشتهر بالبطش والقوة والسرعة ، وهى ثلاث صفات لابد من توافرها فى وحوش البحر وسادته .

ولقد ادركت حين كبرت ان ابى كان سيدا على البحار كلها ..
بعد ستة عشر شهرا قضيتها فى رحم الام ، رضعت ستة اشهر ..

لم ار ابى فيها غير مرتين .. واعترف أنى احببت امى طوال اشهر الرضاعة اكثر مما احببت ابى .. كانت حانية رقيقة ، ولم ارها غاضبة غير مرة واحدة حين هاجمنى سرب من أسماك القرش الصغيرة .. تصورت فى البداية انها جاءت تلعب معى ثم اكتشفت انها تهاجمنى وتعضنى .. كنت طفلا ضعيفا طوله عشرة امتار .. صرخت أنادى امى فانشق المحيط عنها وقد تحول ذيلها إلى مروحةجبارة تضرب ضربات خرساء عمياء فى كل اتجاه . وادهشنى ان ضربات ذيلها كانت تمزق أجساد أسماك القرش فتولى هاربة .. لم يستطع أحدها ان ينال منى غير قطعة من لحم الذيل .. صارت فيما بعد علامة مميزة .. واندلع حقدى عميقا على أسماك القرش .. واشتهرت حين كبرت بأننى ولوع بالتهام العشرات منها وسداد دينها القديم .. ولقد أعطيت أسماك القرش فى مقابل لحظة الخوف الوحيدة فى طفولتى .. ليالى من الرعب الأسود المتشابك وسنوات من الخوف المتصل .

ــ أقبل حوت العنبر الابيض ، ذو الذيل المشوه ..
هكذا كانت حيوانات البحر تعلن عن مقدمى ..

ساعتئذ تولى الاسماك والوحوش هاربة فامضى فى طريق اخلاه الخوف المخوف ذاته .

انهيت فترة رضاعتى وجاء ابى .

سأل امى مشيرا بذيله الى : ماذا حدث لذيله .

قالت مزهوة : الحوت سر ابيه .. تركته وحده فهاجمه سرب من إسماك القرش ..

قال ابى : عظيم .. كيف تصرف الوحش الصغير .

قالت امى ـ وهى تنظر نحوى خائفة ـ تصرف الوحش الصغير كأى وحش صغير ..

قال ابى وهو يضرب الماء بذيله : حمدا لله .. حمدا لله اتبعنى أيها الوحش .. انتهت طفولتك وغدا تبدأ دروسك .

ادهشنى ان ابى صدق اننى تصرفت كوحش . ماذا لو علم اننى صرخت استنجد بأمى ، ما إعظم دهاء الأناث وكيدهن .. كانت امى تحمينى بكلمتها من بطش ابى .. وفيما بعد حدثتنى انه لو علم ما حدث لقتلنى ضربا بذيله ..

قتل قبل ذلك ثلاثة حيتان ضعيفة ولدتها له زوجاته الأخريات وهو يقول :

ـ أفضل للوحوش ان تموت مستورة من أن تعيش خائبة .

قلت اننى احببت إمى اكثر من ابى . استمرت فترة الحب ستة اشهر هى فترة الرضاعة بعدها احببت ابى عامين هما فترة المدرسة .. بعدها غاص حبى لأمى فى قرار المحيط ، وسقط حبى لأبى فى زبد الموج ، وصرت وحشا حقيقيا حين كففت عن الحب ..

بعدها ، لم يعد هناك من يستطيع ان يتصدى لى او يسبح امامى أو يسمع عنى ولا يرتجف . كنت اعتبر أن من يرانى ولا

يتخبط رعبا هو مخلوق يتوقح على ، وتلك جريمة تستوجب العقاب السريع .

وهكذا تسبقني سرعتي نحو المتحدى فأواجهه .. ويتحرك ذيلي نحوه فأحطمه ، وينفتح فمي أمامه فيغيب في جوفي ..

ثلاث حركات موسيقية سريعة تتم قبل ان تدرك الضحية ما حدث .. وأحيانا افتح فمي وانطلق .. بعد ان امر تنطبق المياه على الصمت .

يصير جوفي مقبرة للمتحدى قبل ان يموت .

التهمه صاحيا ليموت على مهل في بطني ..

بعدها اقفز لأعلى من المياه .. شاكرا أنعم الاله .. مرتعشا من خشيته طالبا رضاه ..

كان من الطبيعي ان يكون التدريب على استخدام الذيل اول درس نتلقاه من ابي في المدرسة ..

كانت مدرستنا تقع في بحار الشمال البعيدة ، حيث تقف جبال الثلج العائم شاهدة علينا طوال الوقت بصمتها الهازىء المتحدى .

كان فصلنا يضم ستة حيتان من الذكور .. وكان أبي هو المدرس العبوس الذي يتحرك ذيله نحو المخطىء فيصيبه بلطمة خفيفة يظل تأثيرها ليالي طويلة .. كأن جبلا من الصخور يرقد فوق جنبك أو بطنك أو رأسك .. حسبما تقع الضربة ..

في الأيام الأولى من المدرسة تذكرت بالأسى أيام الرضاعة الحلوة ..

كانت امي تعوم على جنبها وهي تنظر نظرة ساجية ، بينما انا مقوس التصق بجانبها وقد التقمت ثديها في فمي ، لا احدق فيها وانما احدق بهدوء وثبات بعيدا عن الثدي ، كانما احيا حياتين في وقت واحد .. يجتاح الحوت حين يمتص اللبن من الثدى

احساس بانه يستطيب ذكريات غير مائية . ذكريات تجيء من عالم الروح حيث يسود سلام رائع وأمن عظيم ..

انتهى الأمر وتبدد السلام القديم فى الأيام الاولى للدراسة .

كنت خائفا من ابى .. لا انكر .. وكنت أحس بالشوق لأمى .. لا انكر . وكأنما ادرك المدرس العبوس ما يجول بخاطرنا جميعا فقال :

ـ عندما يغادر الحوت امه يغادر سجنه الأصغر .. فاذا غادر اباه غادر سجنه الاكبر .. بعدها ينطلق وحشا فى المحيطات لا يوقفه شيء ..

قال أبى كلماته ثم قفز بين المياه قفزة جبارة فانحدر الماء من حوله كأن **الف جزيرة تقفز فى الفضاء ..**

حين هبط ثانية الى الماء ضرب المياه بذيله ضربة تقعقعت لها عظامنا الطفلة المسكينة ..

قال المدرس : هذه ابسط ضربات الذيل . .

اريد أن يهتز الأفق البعيد بأصوات الانفجار وانتم تضربون المياه ..

نبدأ بأكثركم وحشية ..

اشار بذيله نحوى ..

سألت : هل اقفز ام اضرب الماء اولا ..

قال : اقفز أولا أيها الغبى .

قفزت لأعلى .. صرخ يستحثنى أن افجر عروقى وانا اقفز .. صرخ أننى اقفز كأسماك القرش البائسة ، ثم غير رأيه وقال انها قفزة تشبه قفزات كلاب البحر المضحكة .. عاد يصرخ مطالبا بقفزة ملكية .. قفزة حقيقية .. لأعلى .. اريد أن تصل رؤوسكم الى الشمس ..

مرة ثانية لأعلى .. اضرب الآن بذيلك .. خيل الى من فرط القوة التى أودعتها الضربة أن رشاش ضربتى سيطفىء الشمس .. قال ابى صارخا : لم اسمع غير تنهيدة سمكة مريضة ..

عاد يضرب ذيله فى المياه وقد اشتد هياجه عن هياج البحر .

وعدنا نضرب وراءه ..

استمر التدريب يوما كاملا ..

خيل الى فى نهايته أن جبال الثلج قاربت أن تذوب من فرط مجهودنا المتصل .. حين سقطت الشمس فى آخر المحيط قرصا أحمر .. قال مدرسنا وهو يستدير ويمضى :

ـ تنامون هنا حتى الصباح ..

لم يفكر احدنا فى امه .. ذابت فترة الأشهر الستة الماضية فى عناء يوم واحد ..

ضاعت منا أيام الجنة الأولى .. وها نحن نهبط بحار الشقاء دون أن ندرى اى ذنب كسبناه ..

نمت فى مكانى من فرط التعب ..

وفتحت عينى فى اليوم التالى على الدرس الثانى فى استخدام الذيل ..

. . . . . .

إيقظنا انفجار قوى هو صوت مدرسنا وهو يضرب الماء بذيله . كان أبى يحرك نفسه بيسر ورشاقة يتموجان خلال جبروت القوة .. بل لعل رشاقته كانت تستمد جمالها من قوته .. وفى كل شىء جميل آسر الجمال تلعب القوة دورا سحريا ..

قال ابى فى ابتداء درسه الثانى دون أن يفتح فكه .. قال بشكل عملى :

ـ يختص بذيل الحوت خمس حركات كبيرة .

اولها انه يستخدم كزعنفة تعين على الحركة والتقدم . والثانية حين يتخذ درعا للهجوم أو الدفاع ، والثالثة حين يجرف به ويكتسح المياه ، والرابعة فى استرخاء على المياه أثناء الصلاة ، والخامسة حين يرفع الشطيرتين فى اتجاه عمودى على المياه أثناء التسبيح .. ولئن بدت الحركات الخمس سهلة عى قراء المياه النظريين فانها فى المياه جهد مفتت .

وبما أن ذيل الحوت افقى فى وضعه فانه يتحرك على نحو يختلف عن ذيول جميع الحيوانات البحرية الأخرى .. وهو لا يتعقص ابدا .. فالتعقص فى الانسان والأسماك من امارات النقص .. والحوت مبرأ من النقص . وذيله هو وسيلته الوحيدة للدفع ، وبما انه يلتف كالموجة أماما تحت الجسم ، ثم يقفز بسرعة الى الخلف ، فهو الذى يمكن الحوت من حركة انطلاقه الفريدة الواثبة حين يسبح بعنف وهياج .. اما الزعانف الجانبية فتعين على المخر ليس الا ..

افهمتنا الدروس ان حوت العنبر حين يقاتل حوت عنبر آخر فانه يستخدم رأسه الجبار وفكيه .. فاذا انتقل الأمر الى الصراع مع الانسان فعلى الحوت أن يستخدم ذيله فقط .

ليس فى الأمر استهانة بالانسان أو ازدراء له ..

كل ما فى الأمر ان استخدام قوة تزيد عن الحد ، مع مخلوق يقل عن الحد ، ليست غير جهد معيب بغير حد ..

الرأس والفك اذن لصراع الوحوش والحيتان ..

والذيل وحده للصراع مع الانسان والسفن ..

وفى ذيل الحوت حساسية مرهفة .. واحيانا يقف عصفور مائى على ذيل حوت سابح .. ويحس الحوت على الفور نوع الطائر من وزنه ، يعرف اى طائر هذا ومن اى الجزر جاء ..

فى اللحظات التى تشرق فيها الشمس ..
وحين يكون قرصها احمر اللون لم يدركه اصفرار الشيخوخة
تصطف آلاف الحيتان وتبدأ تسبيحها لله ..

ترفع جميعا شطيرتى ذيلها منصوبتين فى الفضاء ، عمودية على البحر متجهة للسماء .. ومن قرار الأعماق التى لا قرار لها .. يبدو الذيل الضخم وكأنه يحاول التشبث متشنجا بالسماء السابعة .

وليس اعظم فى الطبيعة الحية من هذا المنظر .

قلبى يخشع حين اذكره ، واذكر كيف تتذبذب اجساد الحيتان واذنابها عمودية على البحر ضارعة الى الله بتسبيح الصباح .. ساعتئذ يشهد لنا البحر أن الحيتان هى أشد مخلوقاته تقوى وأعظمها ورعا .

. . . .

فى العام الثانى من دراستى أبديت نبوغا ميزنى عن رفاقى الحيتان ، وكان بشيرا بمجد ينتظرنى فيما بعد .

كان ذيلى الذى شوهته انياب سمكة القرش بقعة من نار تشتعل فى الماء وتلهبنى كى اتفوق .. لم تكن اسماك القرش طعامنا الاساسى ، كان الأخطبوط وجبتنا الدسمة .

غير إننى آثرت ان اجعل أسماك القرش طعامى الأساسى مع الأخطبوط كنت أندفع وسط قطعانها براسى مفتوحا عن آخره ، محركا ذيلى فى تفس الوقت حركاته القاتلة ، وكنت أخلى البحر منها فى ثوان قليلة ، واترك القطيع بعد ان اغسل فمى من دمائه فى المياه .

مرت الأمواج وانتهت فترة الدراسة ..
لم يكن باقيا غير عام تقضيه فى دراسة التيارات البحرية ..
بعدها نخرج للقاء الانسان ..

اذكر اول مرة خرجت فيها لرؤيته ..

قاد ابى القطيع متجها نحو بحار الجنوب الدافئة ..

شاهدنا لعبا خشبية صـــنعت من نبات على البر يسمونه الأشجار .. فوق هذه اللعب الخشبية مخلوقات غريبة تمشى على أقدامها وتحرك أيديها وتنفث من فمها دخانا ..

قال قائدنا الأشهب : هـــذه هى السفن .. وهؤلاء هم ابناء الانسان رفعت راسى وتأملت هذه الديدان التى تعتلى ظهور عيدان وملأتنى الدهشة .. أهذا عدونا الخطير القديم ..

ان حجمه لا يزيد عن حجم ندبة صغيرة فى ذيلى المشوه ..

كيف يكون لمخلوق هذا الحجم الضئيل ، ورغم ذلك يحسب له الجبابرة منا كل هذا الحساب .

قلت لأبى ونحن عائدون : اهذا هو الانسان .

قال : اظنك تحتقر حجمه .

قلت : نعم .

قال : وترى نفسك اقوى منه .

قلت : نعم .

قال : وتحسب انك تستطيع ان تحطم سفنه وتلتهمها معه .

قلت : بالتأكيد .

قال : مخطىء انت بكل تأكيد .. هذا المخلوق الذى رأيتـه من البعد كبقعة او ندبة ، هو اخطر اعدائنا على الاطلاق .

قلت : اين تكمن خطورته ..

قال ابى : هل لاحظت راســـه .. ان راسه مغطى بشـــعر اسود ..

قلت : رايت ذلك فأين وجه العجب ..

قال ابى : يكمن سر قوته فى راسه المغطى .

قلت دهشا : راسه كله فى حجم نهاية اصغر اسنانى العاجية .

قال ابى مؤكدا : اسنانك بارزة .. وراسه مغطى .. والفرق بينكما لا يزيد عن ذلك . انت قوى لا تخفى قوتك ، وهو ضعيف يخفى قوته .. لن تعرف ابدا من اين تأتيك ضربة الانسان .. لن تعرف ابدا كيف تتقيها مقدما .. انه لا يعلن لك عن افكاره ، انك تقترب منه فى دهشة لتتأمل هذا الحوت الخشبى العائم الذى يحمل فوقه مخلوقات تدخن .

وفجأة .. يتمزق قلبك وتتخبط فى دمك وتهلك .

لا تعرف من أين جاءتك الضربة .. ولا كيف جاءتك ، انك ترى الانسان يقف فى مكانه كأنما هو يحرك يده بشىء .. أنت تضرب بجسدك حين تضرب ، اما الانسان فلا يستخدم جسده .. يستخدم اشياء نجهلها تماما .. لم يقل لنا اى حوت قتيل كيف اردوه ، او بأى اداة سحبوه نحوهم ولا كيف مزقوا جسده قطعا صغيرة .

كل ما ندريه أن حيتان العنبر حين تقع فى أسر الانسان .. يزداد النور فى سفنه حتى لتسير السفينة اثناء الليل مثل شعلة من الضوء .

زاد الأمر غموضا بعد حديث أبى ..

ملأنى اليقين أن الانسان يملك قوى لا تملكها الحيتان ، وحاولت عبثا أن افكر فى هذه القوى فلم أصل لشىء ، وسرعان ما نسيت الانسان .. ظلت دهشتى منه غريقة فى أعماقى ، وظل سؤالى عن أسرار قوته بغير رد . انصرفت مؤقتا لشئونى .

كان على أن أؤكد ذاتى فى بحار الشمال والجنوب والشرق والغرب . وكان على أن إصارع أجناس الحيتان الاخرى حتى تتوجنى عليها ، ثم انتقل من صراعها الى صراع بقية انواع الوحوش ، ثم انتقل منها الى ترويع المحيط بمخلوقاته حتى

تتوجني عليها .. بعدها ابدأ الصراع مع حوت العنبر المتوج فاذا انتصرت عليه صرت سيد المياه . استغرق الصراع مع بقية الأنواع عشر سنوات .. كان ابى خلالها قد هرم وثقلت حركته وازداد الشحم حول جسده وصار يتحرك كجزيرة عائمة تنفث .

وكعادة الحيتان .. صار أقوى حيتان العنبر سيدا على البحر .. كان الحوت الذى احتل مكانة ابى حوتا جبارا اسـود الجسد ابيض الذنب . كان أبى يرقب تقدمى البطىء الواثق فى هدوء اقرب الى التأمل .

لم يحدثنى يوما عن آماله القديمة فى اعتلائى عرش المحيط .. ولم أحدثه أيضا فى ذلك .. كان كلانا يعامل الآخـر بتحفظ حذر واحترام بالغ .. ضـــاع حبى له وبقى الاحترام .. كنت اسأله كلما رايته .

ــ كيف حال الحوت العجوز .

وكان يجيب : ثقلت عظامه وبدأ فمه يجد طعم العنبر .

واسأله : ماذا يعنى ذلك ايها الحوت العجوز .

ويجيب : بدأ الموت يغـزو والدك فمتى تركب قمم الأمـواج لتستقر عظام أبيك على عظام المحيط ..

وكنت أجيبه : قريبا أيها العجوز .. قريبا .. ربما شـهدت قبل موتك تاج المياه ينتقل لابنك ..

كان انتقال التاج يقتضى معركة وحشية مع الحوت المتوج ، وكان هذا الحوت صاحب فك عظيم وذنب جبار .

وكنت فى مثل قوته ، ورغم ثقتى انني استطيع هزيمته فقد ارجأت القتال معه قليلا .

لم اكن اريد هذا النصر المزرى الذى ينتصر فيه المنتصر لانه صمد اكثر او ضرب اكثر او اجهد نفسه اكثر ..

كنت أريد تفوقا ساحقا لا يسمح لى بأكثر من لحظة صراع امزقه فيها . ولقد اقتضانى هذا ان اؤجل الصراع بعض الوقت .

كنت اثناءه أتدرب على شيء لم تتدرب عليه الحيتان من قبل ..

شيء أوحت به الى ذات يوم موجة عاتية ..

شاهدت موجة تحطم صخرة من صخور الشاطىء .. اعرف ان الموجة الين من الصخرة واضعف ، كيف يحطم الأضعف الأقوى .. جرى تفكيرى للانسان الذى حذرنى منه ابى .. قلت لنفسى . ربما انكشف سره مع سر هذه الموجه . رحت أدرس الموج اياما وشهورا متتابعة ..

اخيرا عثرت على السر .

اكتشفت ان الموج لا يكف ابدا عن حركته المعتدية ، انه لا يسأم من لطم الصخور ..

يتدرب الموج كل يوم .. هذا سر قوته ..

عدت بذاكرتى الى ايام الدراسة الأولى وتذكرت كيف تكف الحيتان عن التدريب اليومى بعد انتهاء الدراسة ، وتكتفى بالحياة العملية .

قررت ان اشذ عن جنسى واتدرب فى الخفاء ..

وهكذا اعتدت الاختفاء كل يوم نصف نهار فى نفس مكان مدرستنا القديم . كان المكان مهجورا لم يعد يتدرب فيه أحد .

كانت جبال الثلج التى طالما شهدت عقابنا ونحن أطفال لم تزل تقف شامخة هادئة كما هى .

واندلعت داخلى رغبة غير مفهومة فى تحطيم احد هذه الجبال .

اليست هى الشاهد الوحيد على ضعفى ايام الطفولة .. ينبغى ان يزول اكبر هؤلاء الشهود حتى تخاف بقية الجبال .

اخترت اعتى الجبال وقررت البدء به .. كنت أحرك ذيلى وأنقض على جبل الثلج براسى وفكى .. فى المرة الأولى أصابتنى الضربة بالدوار .. وظل الجبل على حاله بغير خدش واحد . وعاودت المحاولة برفق ، ثم بقوة اكثر .. ثم بعنف .. فى نهاية اليوم .. كانت هناك ثغرة فى الجبل تشبه الكهف .. وكان راسى يوجعنى قليلا .. وان احسست انه يزداد صلابة . كان طول راسى يزيد عن ثلاثين مترا .. وكان الجبل هائلا لا يريد أن يتزحزح ، قلت لنفسى وأنا انصرف عنه :

ـ سيصنع التدريب كل شىء .. غدا يزول الجبل ..

ظللت ثلاثة اعوام اضرب الجبل كل يوم آلاف الضربات براسى ، ثم جاءت اللحظة الحاسمة اخيرا وتحطم الجبل ..

انشق نصفين محدثا صوتا هائلا جعلنى أسبح بعيدا عنه ، ثم وقفت رافعا راسى فى المياه متأملا هذه الكتلة الهائلة التى تميل على جنبها فى المياه ..

هزنى الزهو الوحشى فعدت .. لم انسف الجبل ولم إحركه من مكانه ولكننى كسرته نصفين .. صنعت فيه شقا طويلا جعله جبلين صغيرين . انتهى الأمر .. وصار بقاء الحوت الأسود ذى الذيل الأبيض على عرش المياه مسألة قد فرغ منها ..

خلال فترة التدريب القاسية التى فجرت فيها عروقى من الجهد ، وعقلى من العناء .. كان ملك الحيتان المتوج على المياه يقضى أوقاته فى البحار الدافئة مستمتعا باناثه الجديدات ، تماما مثل سمكة سمينة وكسولة من أسماك البورى .

انتهى الأمر بوحش الأعماق ورعب الموج فصار سيدا للحب والغزل .. واضطربت الأحوال الداخلية فى دنيا الحيتان ، صارت الاناث الضعاف والحيتان المرضى تقتل كل يوم بالعشرات .. واصطبغ المحيط بدمنا الدافىء المتدفق العبيط ، وبدا واضحا أن

البحر لم يعد ملكا لبنى الحيتان . اغار الانسان على البر وها هو يمد نفوذه الى البحر .. ولم تكن مشكلة كهذه تحتمل التردد .. ينبغى أن يخلع ملك الحيتان عن عرشه ..

لا يستحق هذا العجوز المتهالك على الاناث تاج الأعشاب الخضراء التى تلتف حول راسه حين يخرج من القاع ..

لم اكن أفهم هذا النزوع للاناث والتهالك عليها! ..

لم المس حوتة منذ أن ولدت ..

لم اعرف ملمس جسد لأنثى غير جسد أمى التى ارضعتنى .. بعدها آمنت براى ابى فى الاناث .. آمنت أن الحوت الذى يعيش طويلا مع الاناث يكتسب كثيرا من عاداتهن ولا يستطيع أن يظل على وحشيته .

كنت اعرف أن الحيتان تجتمع كل عام فى موسم الحب فى البحار الدافئة ..

وهناك يتصدر قيادها حوت واحد ..

ومن حق أى حوت آخر أن يصارعه لو أراد اعتلاء عرشه .. ويكون الصراع عادة على الاناث ..

كان الوقت لم يزل مبكرا على اجتماعنا السنوى ، لم اكن مستعدا للصبر طوال الشتاء .. كان ابى ينحدر نحو نهايته بسرعة ، ولم اكن لأخذله قبل أن يموت .

وجاء يوم خرج فيه القطيع كله وقد تصدره الحوت الأسود ذو الذنب الأبيض ..

طاردتنا سفينة صيد ..

نزلت منها ثلاثة قوارب وبدات تسبح وراءنا .. كنت أستطيع ان استدير واهشم القوارب .. غير اننى آثرت أن انتظر قليلا لأرى كيف يتصرف القائد المسئول عن القطيع .. ضرب قائد

القطيع المياه بذنبه ضربات متعاقبة لكنه ظل بعيدا عن السفينة . استطعت ان استنشق لضرباته رائحة خوف خفى ..

فى احدى المرات التى غصنا فيها شاهدت شيئا يندفع نحو ابى .. بعـــدها انطلقت آهة الحوت العجوز .. جريت نحو ابى اسأله ..

ـ ماذا حدث ايها العجوز .

قال : مزق جسدى شيء لست ادرى كنهه .. اراني إتحول الى ضــوء للمصابيح .. إراني معلقا على البر مدلى من أســقف المنازل .

قلت : ستعيش فلا تقلق ..

خرجت من الماء واستدرت مندفعا نحو الســفينة .. كانت تقبل بكل سرعتها نحوى .. وصرخ على قائد القطيع يحذرنى من الصـــدمة .. لم اعبأ بصرخته وازداد انطباق فكى وازدادت حركة ذيلى وازداد اندفاعى .

كان صوت الصدمة هائلا ..

انشطرت السفينة من مقدمتها نصفين .. وقالت الحيتـــان صارخة .

ـ تحطمت جبهة الحوت الابيض ذو الذنب المشوه . إستدرت بعد الصدمة واستخدمت ذيلى فى كل اتجاه .. لم تكن السفينة أقوى من الجبل ، وكنت مدربا على الجبل .. بعد لحظات كانت السفينة بقواربها وناسها قد اختفت تحت صفحة المياه وانطبق عليها اللون الأزرق .

كان أبى جــريحا .. واقترب منه الحوت الأســـود محاولا اكتشاف علته ولكننى صرخت عليه من موضعى أمام الحيتان جميعا أن يظل فى مكانه ، فهو سمكة خائرة وليس حوتا ..

توقف الحوت واستدار نحوى ..

ضرب ابى ذنبـه فى الميـاه وراح ينفث .. ادركت إنه فهـم ما اقصد .. كان ابى يحتضر .. وأردت ان يرانى سيدا للبحار قبل ان يموت . لم يستغرق صراعى مع الحوت وقتا ..

اندفعت نحوه قبل ان يندفع نحوى واطبقت بفكى على راسه . غاصت انيابى العاجية الجبارة فى راسه .

هشمت راسه مثلما اهشم بيض الأسماك حين أريح جسدى على قاع المحيط ..

كانت قوتى تكمن فى راسى ، وكانت قوته تكمن فى ذيله .. وقد هشمت راسه قبل أن يستخدم ذنبه ..

وهوى الحوتان فى المياه ..

جسد ابى وجسد سيد البحار بعده ..

رفعت ذيلى عموديا على الماء ونفثت .

رفعت الحيتان بعدى اذنابها عموديا على المياه ونفثت ..

قدمت خضوعها لى ، بصفتى ملكا متوجا على المياه ، ثم قدمنا معا خضوعنا لله .. بوصفه رب الموت والحياة .

ومرت أمواج وامواج ..

لم يعد فى المحيطات الأربعة حوت مثلى .. دانت لى وحوش البحر بالطاعة ، ودانت لى الأمواج بالخضوع .. وانكشف لى سر التيارات البحرية ، وبقى سر الانسان مغلقا أمام عقلى .. واقسمت الا يمر انسان وسط امواج شهدت مصرع أبى واعتليت فيها عرشى .. اقسمت أن احطم كل سفينة تمر من هذه المياه ...

لقد جاء الانسان من الأرض فأخرجنا منها .. وها هو يبدا غزوه للبحر فينبغى التصدى له واعادته الى البر ..

انعقدت جبهتى على ذلك ..

وظللت وفيا لقسمى سنوات ..

على امتداد سنوات لم تكن سـفينة تمر فى البحر وتستطيع ان تنجو ..

لم يكن انسان يجرؤ على هبوط مياه البحر ويعود سالما ..

حتى لو استقر فىجوف سمكة قرش ، فلم يكن ليهنأ باستقراره كنا نحمل سمكة القرش ذاتها الى جوفنا ..

ورغم استمرار الصراع مع الانسان .. ورغم هزيمة الانسـان فيه وانتصار الحيتان .. بقى سر الانسان طلسما لا يعرف حله احد ..

كيف ينجو الانسان من جوف الحوت ؟

عذبنى السؤال طويلا ثم جاء يوم .

. . . . . .

كنت راقدا فى أعمق جزء فى المحيط .

ارسيت عظامى على عظام القاع ونمت .. صـدرى يمتلىء بهواء يكفينى حتى الفجر .

فوجئت بأننى مستيقظ ومشدود الحواس .

لم ادر السبب فيما حدث .. رايت نفسى اصعد الى سطح البحر دون سبب مفهوم .. خيل الى ان يد القـدرة التى تسـير اصفر الأمواج كانت تحرك ذيلى .

وصلت الى سطح البحر .. كان هائجا مزبدا .

اتكون العاصفة قد بدات .. نفثت قليلا وقررت أن اعود الى القاع .. كان الجزء الذى اخترته من القاع هادئا بالقياس الى هذا السطح .. فجأة لمع فى ذهنى سؤال كالبرق .

كيف يكون السطح عاصفا والقاع هادئا .. أعرف من تيارات الماءمتى تجىء العاصفة .. اعرف ذلك قبل أن تجىء .

.. اتكون قوانين الموج قد تغيرت خلال اغفاءتى القصيرة ؟

وقفت أمام السؤال حائرا .

فوجئت بأن سفينة تتأرجح هناك .

اسرعت نحوها بهياج وعنف . قلت اساعدها على الغوص بضربة .. لم اكد اصل اليها حتى فوجئت بأننى نسيت ما جئت من أجله .. رايت نفسى اسبح خلف السفينة وكأننى خرجت فى نزهة بحرية .

لست أعرف ماذا اصابنى .. كان الظلام كثيفا ومنطبقا فقلت : لعلنى لم أستيقظ بعد .. شاهدت شيئا يسقط من سطح السفينة .

تقدمت نحو هذا الشيء فرأيتنى أمام عدوى القديم .

انسان يتخبط فى جوف الهياج الجامح .

تقدمت نحوه وفتحت فكى .

دفعته موجة قوية داخل الفك .

أغلقت عليه أنيابى العاجية والتقمته .

هزتنى رعدة قوية وأنا إسمع صوتا ولا ارى أحدا .. كان الصوت يجىء من كل مكان ولا يجىء من مكان محدد .. كان الصوت لأحد ملائكة الله .. كان الصوت يقول:

ـ لم نجعله لك رزقا بل جعلناك له حرزا ومسكنا ، خذه ولا تكسر له عظما ، ولا تخدش له لحما .

فى بداية الأمر ، لم افهم قصد الكلمات ، تنفست نفسا عظيما وغصت فى عمق البحر .. ظللت اغوص حتى وصلت الى القاع .

ارحت عظامى واغفيت .

لم أكن احس إننى انا .

كلمة تثير الدهشة ولكنها تعبر عن احساسى الحقيقى وقتئذ . قبل أن أنام فكرت فى الغرائب التى شاهدتها .

تساءلت كيف يكون السطح هائجا عاصفا والقاع ساكن راكد .

تساءلت لماذا استيقظت . ما الذى اصابنى حين رايت السفينة فلم احطمها .. من هو الانسان الذى سقط منها .. هل القى بنفسه أم القاه احد .. لماذا القى بنفسه .. ما الذى فعله .. لماذا التقمته .

ما معنى الكلمات التى حذرتنى من المساس به .. كيف ابتلعه ولا اخدش له شيئا .

دارت الأسئلة فى راسى وثقلت وطأة السر على فاستسلمت للنوم .

استيقظت حين انتهت كمية الهواء فى رئتى .

خرجت الى السطح .. كان هادئا صافيا بغير موجة واحدة .. رحت انفث .

تذكرت ما حدث ليلة الأمس .. وخيل لى اننى كنت احلم .

جاء موعد افطارى فهرعت نحو خليج تكثر فيه الاخطبوطات . وصلت الى الخليج وحاولت أن افتح فكى لأتناول وجبة الافطار فلم أشعر داخلى بأى رغبة فى الطعام .

ما هذا ..

اأكون مريضا دون ان أعلم .

مرت جوارى سمكة متوحشة من اسماك القرش .

كانت عادتى أن التقمها صاحية ، واهضمها على مهل فى جوفى .. حاولت أن افتح فمى لابتلاعها فلم استطع .. لم أجد داخلى رغبة كافية تمكننى من فتح فمى . أدركت أن الغرائب التى عاينتها فى الليلة الماضية لم تكن حلما كما ظننت .

كانت واقعا لم تزل آثاره مستمرة .

فكى المنطبق وبطنى الزاهد دليلان على تغير لست أدريه .

قفزت ساجدا نحو السماء سائلا تفسير ما يقع .

احسست بحضوره دون أن أراه . .

ثنيت جسدى تحية للملك وقلت :

ـ ايها الملك الكريم . . ان الحوت الأبيض ذا الذنب المشوه مريض ويرى أحلاما . ليلة الأمس وقع لى حادث مروع .

قال : وقعت ليلة الأمس معجزة .

قلت : أيسمح سيدى الملك الآمر فى البحر أن يحدثنى عمن ابتلعت ليلة امس .

قال : ابتلعت ذا النون .

تساءلت : معذرة لجهلى . . من يكون ذو النون .

قال : نبى وديع ونسمة كريمة .

قلت : هل القى نفسه من ظهر السفينة .

قال : ساهم فكان من المدحضين .

قلت : التقمته دون ان اعرف انه نبى . . لم اكن أعرف أن ابتلاعه سيستدعى حضورك . . او حضور أى ملك من الملائكة .

قال : لم يجعله الله لك رزقا .

قلت : ولكنه فى جوفى . . انتهى الأمر وصار لى رزقا .

قال : لا . . هو فى جوفك ولكنه ليس رزقا لك .

قلت : لماذا ابتلعته اذن .

قال : انت له حرز ومسكن .

قلت : كيف يكون الوحش حرزا ومسكنا لنبى هو الوداعة .

قال الملك : ايها الحوت . . تأمل جسد الانسان . . وهو اعظم منك وحشية .

تأمل نفس الانسان أو روحه . . أليست هى النقاء والوداعة

.. تأمل كيف يعيش الاثنان معا .. الجسد رداء للنفس ، والنفس لب للجسد ، والجسد هو الوحش ، والنفس هى الوداعة .

قلت : كيف تنجو النفس من الجسد .

قال : كما تنجو الوداعة من الوحش .

قلت : كيف تنجو الوداعة من الوحش.

قال : مثلما ينجو يونس من جوفك .

قلت : كيف ينجو يونس من جوفى .

قال :ستعرف كل شيء .. تذكر فحسب انك صورة لحوت .

أنت وحش حقا ولكنك لست اعظم وحشية من جسد الانسان .

انطبق الجسد على النفس فلنر كيف تنجو النفس .

انصرف الملك وتركني وحدى .. اسبح فوق سطح ازرق غامض صرت اشك فى زرقته .

زاد كلامه الأمر غموضا فى عقلى .. يقول لى اننى صورة لحوت .. ايعنى هذا اننى لست حوتا حقيقيا .. أيكون ما يقع لى الآن احلاما لا تقع لى .. أيكون كيانى الوحشى جسدا لمعجزة دون ان ادرى ، او يكون رمزا لشيء لا علاقة لى به .

اعتلت الشمس عرشها فى قلب السماء .. لم ازل سابحا انفث .. تعبت من السباحة فقلت أستريح قليلا فى أعماق البحر .. ثنيت ذيلى الجبار وغصت .

أغوص فى مياه سوداء متفكرا .

ماذا يصنع ذو النون فى جوفى الآن .. وكيف تنجو الوداعة من الوحش .

للمرة الوحيدة فى حياتي احسست انني اشفق عليه .

ليست كلمة الاشفاق معروفة فى قاموس الوحوش .

هى كلمة متحجرة بائدة لا يستخدمها من الوحوش احد الا اذا مرض وتراءى له وجه الموت .

اترانى مريضا ينتظر الموت .

اترانى لم اعد وحشا كما كنت .. لكننى طوال طريقى الى الاعماق كنت اشهد مخلوقات القاع تفر امامى .. تتخبط بالرعب وتتحطم على الصخور وتهرب .

وحش لم ازل كما كنت .. فمن اين تأتينى هذه الرقة .. ايكون هذا الذى التقمته بالأمس هو المسئول عما اصابنى من ضعف .. اليس نبيا .. اليس نسمة مباركة .. اليس وديعا .. لا ريب انه المسئول عما اصابنى من وداعة وبؤس .. وليس اعظم بؤسا للوحوش من مرضها بالوداعة .

اردت ان اكرهه فلم استطع .. اردت ان انساه فلم اتمكن .. احتل النبى جوفى وعقلى معا .. حمدت الله اننى لم ابتلع سمكة القرش الوحشية فى الصباح .. لو ابتلعتها لأكلته السمكة .. نسيت أننا طردنا من البر بسبب الانسان .. نسيت كل العداوة السحيقة بين جنسنا وجنسه .

تركز تفكيرى فى شىء واحد .

ماذا يفعل النبى فى جوفى الآن .

فكرت فى المياه السوداء التى اغوص فيها ، وجوفى الذى ينطبق عليه ، واحسست بوطأة مأساته .

اصطدمت بالقاع فأوقفت حركة ذيلى وتوقفت .

مرت جوارى آلاف الحيوانات البحرية والوحوش وهى تؤدى التحية بسرعة الخوف والتخبط .. رأيتها تمشى مضيئة ينبعث ضوؤها منها .. فى الأعماق البعيدة من البحر .. تنكسر قوانين الشمس وتموت الشمس ذاتها بعد ثلث البحر الأول .

بعدها تنطبق مملكة الظلام .. ذكرنى ضوء الوحوش السابحة بظلمة جوفى وتساءلت : كيف يجلس النبى وسط هذه الظلمات .

ـ لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين .

كان الصوت غير معروف لدى .

اعرف اصوات الوحوش والحيوان والأسماك .. ليس هذا صوت احدها بالتأكيد .

حركت ذيلى حولى لأرى من يكون مختبئا فى أعماق الظلمة فلم اجد احدا .

ـ لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين .

لم يزل الصوت يتردد .. بلا انقطاع يتردد .. لا يكف ولا يمل ولا يسكن ولا يسأم .. كلمة وراء كلمة .. لا تكاد تنتهى الجملة حتى تعود كما بدات من جديد .. دورة كدورة الشمس أو دورة القمر .

اعتصرت ذهنى تفكيرا لاعرف من اين يجىء هذا الصوت .. ثم لمع فى عقلى فجأة أن الصوت يصدر منى .

شاهدت شيئا يشبه النور يخرج من جسدى مع كل تسبيحة .. أدركت أن النبى السجين فى جوفى يسبح الله .. أصابتنى رعدة شملت جسدى كله .. احسست ان العرق ينعقد على جبينى الأشهب حبات كحبات اللؤلؤ .

حركت ذيلى وأوقفته عموديا على القاع .

قلت اتبع ذا النون ما دام لم يتبعه أحد .

ـ لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين .

ترتعش الكلمات بحب يضىء ظلمة القاع ، وتتوهج المياه بحنو لم اكن احسب المياه تنطوى عليه .. اتصلت الشرارة من جوفى بذرات المياه وأعشاب القاع المتحجرة وصخوره القديمة ورماله الطينية .

استيقظ قاع البحر وانصت لتسبيح ذى النون .

ـ لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين .

يفرد النبى ربه بالألوهية ، ويقدسه بالخضوع . ويرمى نفسه فى نفس الوقت بالظلم .. رحت افكر فى معنى الظلم ، ما الذى تعنيه الكلمة .. كيف كان ذو النون من الظالمين .. ماذا فعل .

إحسست أن الأسئلة تطبق على عقلى وتكاد تهشمه فاندفعت خارجا .. قفزت من المياه ساجدا لأعلى وتساءلت :

ـ ماذا فعل النبى الذى أحمله فى جوفى يا رب .

لا صوت غير صوت الأمواج .

لم يجبنى أحد .

ايكون سؤالى تجاوزا لرتبتى فى الخليقة .

ملأت رئتى بهواء البحر ورحت انفث .. الشمس تغرب هناك .. والنبى داخلى لا يكف عن التسبيح .

تأملت غروب الشمس .

قلبى ثقيل وصدرى ضيق كأننى القيت خارجا المياه .. حزين من اجله .

مثل ضربة الانسان المجهولة التى تصيب الحوت فيهوى متخبطا فى دمه ، اصابتنى ضربة حزن داهم فهويت متخبطا فى بحار الحزن .

ايكون حزن النبى السجين ينتقل الى .. تذكرت فجاة أن معدتى تعمل ، عصارتها تعمل .. ربما هضمت صاحبى الذى يسكن جوفى .

اقول صاحبى وأحس ما اقول .

اردت ان أوقف عصارات المعدة فلم استطع ، إيكون المخلوق وحشا ورغمها لا يستطيع التحكم فى عصارات معدته .. اى وحشية تبقى له ان كان فى جسمه جزء لا يطيعه .. بذلت جهدا يائسا محاولا التحكم فى معدتى فلم انجح .. قررت الصيام . قلت لنفسى : لعل الصيام ينقذه .. رحت أفتح فكى

وأملأ رئتى بالهواء لعل بعض الهواء ينقذه .. يتسلل اليه فلا يختنق .

ماذا لو اختنق او هضمته .

ماذا اقول للملك الذى امرنى ان احافظ عليه .

هزنى الخوف فرحت اضرب ذيلى فى المياه ضربات جبارة مهولة ، وانا اصيح :

ـ أريد ان يعيش يا رب .. أريد ان ينجو .

اصابنى ذعر غامض .. رحت أغوص واندفع خارج المياه لغير ما سبب .. ظنتنى الحيتان مريضا وهرعت الى .

تساءل حوت : ماذا أصاب الحوت الأبيض ذا الذيل المشوه .

قلت : داخلى سر لا استطيع الافصاح عنه فانصرف .

انصرفت الحيتان وبقيت وحدى تماما .

الموج يرتفع وينخفض .. والتسبيح يرتفع ويرتفع .. لا ينخفض أبدا ولا يتوقف ولا يهدأ ولا يستريح ولا يكف .

سقطت الشمس تماما فى البحر .

ارتدى الليل آخر ثيابه السوداء .. وارتدى قلبى آخر ثياب الحزن .

ملأت صدرى بالهواء وحركت ذيلى وهويت نحو القاع .

أرسيت عظامى على عظام القاع وسكنت .

أحاول أن أفكر .

حاولت أن أتصل به فهمست فى جوف الليل وجوف البحر وجوف الخوف : أيها النبى الكريم .. ماذا أستطيع ان افعل من اجلك .

قال ذو النون : لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين .

قلت : أيها النبى الكريم .. كيف إساعدك على النجاة .

قال ذو النون : لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين .

ادركت أنه لا يستمع الى .. كان مشغولا بتسبيحه عنى .

اغلقت قلبى على الصمت وكففت عن الأسئلة .

رفعت ذيلى عمـوديا على القـاع ورحت اسـبح بطريقتى الخاصة .

وانعقد فى القاع مهرجان من الخلائق .

رفعت الرمال رؤوسها وسبحت .. اجتمعت الأسماك وراحت تسبح .. جاءت الحيتان والوحوش وراح كل واحد فيها يسبح بأسلوبه الذى علمه الله له .

كنت مستمرا فى التسبيح شـاعرا فى نفس الوقت بخوف هائل .

كنت جسدا وحشيا لكننى كنت ارتعش ، أيخاف الجسد من النفس حين تبدأ التسبيح .

كل ما أدريه أننى كنت على استعداد لأن أفعل أى شىء لانقاذ يونس .

انتهى ما ادخرته من الهواء فعدت مسرعا الى السطح .

رحت أسبح وأنا أنفث .

مرت الى جوارى سفينة فلم أعرها التفاتا .

جائع لحد الاعياء .

منذ يومين لم آكل شيئا ، والمفروض الا يقل طعامى اليومى عن ألف كيلو من السمك .

قررت ان استمر فى الصوم .

بدأت معدتى تتقلص .. وراحت أمعائى تصنع العنبر .

لا أستطيع أن اغامر بابتلاع أى طعام بعد أن ابتلعت يونس .

لو تحركت معدتى فسوف اقتله .

لتبق المعدةهادئة بغير حركة . أو بحركة التقلصات المؤلمة وحدها دون حركة الهضم .

ــ لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين .

لم يزل تسبيح النبى مستمرا .

ادركت اننى اقتل نفسى بالصوم .. لكننى أدركت فى نفس الوقت ان يونس لن ينجو من جوفى الا اذا قتلت نفسى .

كان يونس قد صار نفسا « ثانية » لى .

وكان كيانى قد صار جسدا « ثانيا » ليونس .

ولا تنجو النفس الا على حساب الجسد .

. . . . . .

جاء اليوم الثالث .

صائم لليوم الثالث .. دم القوة ينسحب من جسدى فيعلو صوت تسبيح النفس .

فى العمق البعيد من روحى يشرق نور يجل عن الوصف .

أمعائى تمتلىء بالعنبر .

تقلصات معدتى تزيد وصوت تسبيحه يتردد :

ــ لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين .

اطوف البحارالباردة والدافئة جميعا قبل أن أرحل .

ألقى نظرة السلام الأخير على الخلجان والصخور والجزر والحيتان والأسماك والطحالب والزبد والملح .

أتوقف عند جزيرة .

تقلصات معدتى تمزق معدتى .

أسمع صوتا يجىء من كل مكان ، ولا يجىء من مكان محدد « فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث فى بطنه الى يوم يبعثون » .

فتحت فكى وتباعدت أنيابى العاجية من الألم .

اطلقت السجين من جوفى على الجزيرة .

عرفت السر قبل أن اموت فما أقسى المعرفة .

على الماء أكتب .

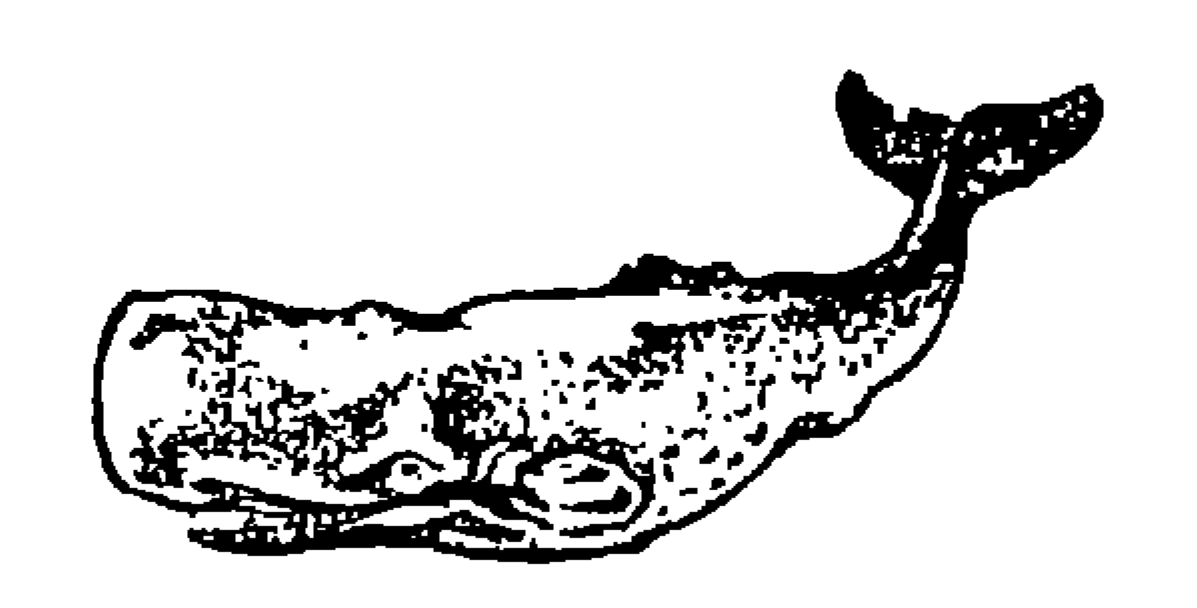
بالعنبر العطرى أكتب .

تذوب الكلمات فى البحر وتنطوى الصفحة الزرقاء على السر فاكتب .

احلم اننى زيت معلق فى قناديل تهتز مع الريح .. تهتز مثل هزات الموج .

تهتز ..

تهتز ..



بقرة بني إسرائيل



النظرة المستسلمة الساجية فى عينى الواسعتين لا تتغير أبدا .

الطعام كاف أو غير كاف .
الماء متوفر أو شحيح .

الشغل قليل أو كثير .

تختلف الظروف والأحوال ، وتتغير المعاملات والأقوال ، ورغم ذلك تبقى نظرة الاستسلام الساجية فى عينى كما هى .. لا تتغير ولا تتبدل .

الاحظ أن عيون الناس تتغير طبقا لتغير مزاجهم .. فهل يعنى ثبات عينى أننى لا انفعل .

ربما ننفعل .. غير انه انفعال مقيد على شرط ، وليست له غير حالة واحدة .. عندما تقف ذبابة « سئيلة » فوق ظهرى أنفعل .. اهز ذيلى الى الأمام محاولة طرد الذبابة .. اذا ظلت متمسكة بمكانها فوق ظهرى كففت عن هز الذيل واستسلمت ورضخت ، والرضوخ متعتى فى نهاية الأمر .

اذا كان هذا حالى مع الذباب ، فلا شك انكم تقدرون موقفى مع الانسان .. لا انفعل أبدا معه .

اخاف أحيانا حين يضربنى .. غير اننى استسلم لخوفى من خوفى منه .. حياة رائعة .

بقرة وراضية عن حياتى تمام الرضا .. نعمة انا ولكن لغيرى .

لا اعرف متى أذبح .. اعرف ان آلاف البقر يذبح ، ويبدو اننا نحس بنوع من السعادة الغامضة حين نذبح .. هذا معناه اننا نحقق ذاتنا .. نتحول الى طعام هنىء يدخل جوف الانسان . كما نتحول الى نعال ينتعلها ابناء آدم .. نطعمه ونكسوه ونقوم على خدمته .

شيء كريم ان يكون العطاء طبيعة وحيدة للمخلوق .

نعرف ان الانسان يأخذ منا — نحن البقر — كل شيء .. حتى ما يعطيه لنا يعطيه لنا بنية الاسترداد فيما بعد .

اذا كان يعطى الفول والشعير فهو يريد ان يأخذ لحما سمينا فى المستقبل .

ليس هناك شيء لوجه الله .

المسألة محسوبة ومقدرة ومعروفة ، ورغمها لا ننفعل .

الانفعال فى عرفنا لا يجوز ، مثلنا الأعلى أن نقول : دعونا نأكل الفول ونعيش . الرضوخ هو السبيل للحياة .

هكذا تعلمنا وهكذا عرفنا وهكذا ورثنا .

قال لنا الشيطان يوما — لو ثار البقر لوقع انقلاب فى دنيا البشر .

ان الانسان يستغل مجهودكم فى الحقول ، ويصنع من البانكم جبنة وقشدة وسمنا وعسلا ، واخيرا يذبحكم ويأكلكم .. ايها البقر .. ان عدونا وعدوكم واحد هم البشر .

لو ظللتم على استسلامكم له فلن تتطوروا ابدا .. لقد ولدتم

بقرا وستعيشون بقرا وتموتون بقرا .. ثوروا .. تحركوا .. افعلوا شيئا .

استمعنا الى كلام الشيطان . وقالت احدى الأبقار تحدث زميلة لها :

ـ كنت تتحدثين أيتها الأخت عن الفول الذى اكلته من الحقل الجديد ، اكان طعمه يختلف عن فول الحقل القديم .

قال الشيطان : تحركوا .. كفوا عن الكلام فى الأكل وثوروا .

قالت البقرة : كان طعم الاثنين واحدا أيتها الأخت .. هذا الفول وذلك الفول .

انصرف الشيطان يائسا وهو يغمغم بكلام لم نتبينه عن البقر والبشر .

بعد أن مضى الشيطان سألت احدى الأبقار :

ـ من كان هنا .

قالت زميلة : واحد لا أعرفه .

قالت بقرة اكان يتكلم ؟.

قالت أخرى : كان منفعلا .. قال شيئا لم يعلق فى راسى .

لا يعلق فى رؤوس البقر شىء .. نسمع الكلام من الأذن اليمنى فيخرج من اليسرى.. راسنا كبير لا يحمل الهموم ولا المشاكل ولا المتاعب ولهذا السبب يعيش البقر طويلا .. نعتبر أن يوم الانسان عاما بأكمله من السرور والهناء والفول والرضا .

أعيش فى بنى اسرائيل .

بقرة مملوكة ليتيم .

لم اكن بقرة عادية فى الحقيقة .. كنت جميلة وسط البقر . صفراء فاقع لونى يسر الناظرين .. لم يكن فى جسمى كله اى اثر للون آخر .. لم اكن كبيرة ولم اكن صغيرة .. متوسطة كنت

ولطيفة يندر العثور على مثلى فى البقر . أريد أن اتكلم قليلا على بنى اسرائيل .. ناس يثيرون دهشة البقر .

تسمع الكلام فيعجبك .. وترى الأفعال فتستعجب .

كلامهم فى وجوه بعضهم البعض حلو .. فاذا استدارت الأقفية تحول الحلو الى مر .

اسمع طبعا عن سيدنا موسى .

هذا نبيهم الكريم وكليم الله ..

لم اره ابدا ولكننى سمعت عنه .. وكان الكلام عنه متناقضا وغريبا .

ان عدد الذين يحبونه من بنى اسرائيل أقل بكثير من عدد الذين يكرهونه .

وهذا طبيعى فيما اعتقد .

جاء موسى بالحق .. وما أثقل الحق على النفوس الظالمة .

لا أنفعل أو أرفع صوتى بها .

اقولها برضا .. ما لى أنا بهم .. هم احرار فى أنفسهم .

أعيش فى حالى .. ومن عاش فى حاله ذبح فى النهاية . وعظمة البقر انه يذبح فى النهاية .

كان اليوم مشمسا دافئا .

أسمع هذا التعبير دائما .. أستطيع أن أفهم معنى الدفء .. أستطيع ان اعرف معنى النظافة .

ليس البقر كالجاموس يشرب من ماء عكر ملوث .. أو ينام فى فراش مبلل أو غير نظيف .. نحن نعشق النظافة ونرفض ما عداها ..

الشىء الذى لا أفهمه هو الشمس .

أسمع الناس تتحدث كثيرا عن يوم مشمس .. وشمس حارة .. وشمس تشرق وشمس تغرب .. ولكننى لم أر الشمس فى حياتى مرة واحدة .

أحس أحيانا ان هناك شيئا حارا يتخلل جسدى كله ويجعلنى اعرق .. فهل هذا هو الشمس .

لا اعرف .

يقولون ان الشمس فى السماء .

وهذا يزيد الأمر تعقيدا .. فأين هى السماء ؟ .

من المعروف أن البقر يستطيع أن ينظر أمامه .. أو خلفه .. أو يمينه أو شماله .. لكن البقر لا ينظر لأعلى ابدا .. لا تنظر البهائم لأعلى .

ليست هناك بقرة تنظر لأعلى وتتأمل الشمس .. لو صح أن هناك شمسا .. على أى حال .. اذا كان وجود الشمس غير مؤكد .. فان الشىء المؤكد هو وجود الفول .. أكلت فى الصباح قدرا عظيما من الفول .. زلطت الفول بنصف مضغ .. توفيرا للوقت والمجهود وتأكدا من التهام أكبر كمية ممكنة .. بعد ذلك ارقد على بطنى على الأرض .. أجتر ما أكلته فى الصباح .

جيج .. جيج .. جيج .

صوت فمى وهو يمضغ .. متعة هو المضغ .. والبلع أمتع والأرض نظيفة .. والتراب رطب .. والظل ممتد .. والسكون تام السكون .

اندلعت الصرخة فجأة .

حولت راسى ببطء .

لا يهتز البقر ولا ينفعل .

عادت الصرخة تشتبك بصرخة ثانية .. ثم اشتعلت القرية كلها بالصراخ .

ـ قتل ايليائيل .. اغنى اغنياء بنى اسرائيل .

لا اعرف هل كان اسمه ايليائيل او بنيامين او شعورايم .. اسمه صعب فلم احتفظ به فى راسى .

الأمر لا يهمنا ولا يتصل بنا فلماذا نهتم .

لم نستطع ان ننام هذه الليلة من فرط الضجيج فى القوم .. اختصم اهل القتيل ولم يعرفوا قاتله ، ويبدو ان هذا القتيل كان رجلا له مركزه فى بنى اسرائيل . ويبدو أن خفاء قتله كان داعيا لشيء يشبه الفتنة .

قرر القوم ان يلجأوا لنبى الله موسى .

سألتنى احدى الأبقار : هل ذهبت القرية لموسى .

قلت : نعم .

سكتنا على ذلك يومين .. ثم سألتنى فى اليوم الثالث .

ـ ماذا قال موسى .

قلت : لا أعرف .

قلنا نسأل .. سألنا بقرة قابلناها فى حقل .

ـ ماذا قال موسى .

قالت : اسأل لكم .

سكتنا على ذلك يومين .. ثم صادفنا البقرة فسألناها ماذا قال موسى فقالت نسيت أن أسأل .

ونسينا الموضوع كله ، ثم فوجئنا ان الناس تتحدث فيه .

عرفنا من الناس أن موسى قال لقومه :

« ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » .

الموضوع يتصل بنا اذن .. هذا شيء يثير الاهتمام .. والاهتمام شيء والانفعال شيء آخر .. الاهتمام فى عرفنا جائز .. والانفعال لا يجوز .

سألنا ـ اى بقرة ذبحوها .

فوجئنا انهم لم يذبحوا بقرة .

سألنا ـ كيف الم يبلغهم موسى ان الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة .

فوجئنا مرة ثانية بأن بنى اسرائيل قالوا لموسى : « قالوا اتتخذنا هزوا قال اعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » .

جراة لا حد لها على نبى الله موسى .. لقد امرهم أن يذبحوا بقرة .

وكان المفروض ان يذبح القوم اول بقرة تصادفهم .. غير أنهم بداوا مفاوضاتهم باللجاجة .

اتهموا موسى بأنه يسخر منهم ويتخذهم هزوا .

ان البقر لا يتصرف هذا التصرف لو كان فى مكانهم .

استعاذ موسى بالله أن يكون من الجاهلين ويسخر منهم .. افهمهم ان حل القضية يكمن فى ذبح بقرة .. ان الأمر هنا امر معجزة لا علاقة لها بالمألوف فى الحياة أو المعتاد بين الناس . ليست هناك علاقة بين ذبح البقرة ومعرفة القاتل فى الجريمة الغامضة التى وقعت .. سيضرب بنو اسرائيل القاتل بجزء من البقرة المذبوحة .. قتيل مات .. وبقرة ذبحت .. لو ضرب بنو اسرائيل شيئين ميتين ببعضهما لعرفوا القاتل .. سيستيقظ القتيل من موته ويبوح باسم قاتله .

ما هو الغريب فى هذا ؟

معجزة ..

نعم معجزة .

ليست منطقية ولا معتادة .

لكن متى كانت الأسباب المنطقية هى التى تحكم حيـاة بنى اسرائيل .. ان المعجزات الخارقة هى القانون السـائد فى حياتهم .

لقد ضرب موسى البحر بعصاه فانشق البحر نصفين وعبر بنو اسرائيل وغرق فرعون وجنوده .

ايندهش الناس بعد هذه المعجزة من معجزة ثانية .

لو كان البقر مكانهم لما تصرف هذا التصرف .

أكاد انفعل لولا أن الانفعال لا يجوز .

ليس استمرار المعجزات فى حادث البقرة أمرا يوحى بالعجب او يثير الدهشة .

لكن بنى اسرائيل هى بنو اسرائيل .

مجرد التعامل معهم عنت .. ومجرد التفاوض معهم تعب .

اتعبوا قلب نبيهم أتعب الله قلبهم .

اقولها بلا انفعال .

لا ينفعل البقر .. يلاحظ مايلاحظه بغير انفعال .

لم تزل المفاوضات مستمرة .

بنو اسرائيل يعودون الى موسى .

« قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى » .

مرة أخرى يتحدثون عن البقرة .

مرة أخرى يسأل موسى ربه وربهم ورب العالمين . ويعود اليهم بالجواب .

« قال : انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر .. عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون » . الكلام شديد الوضوح .. البقـرة ليست صغيرة وليست عجوزا .. هى وسـط بين ذلك .. كان المفروض أن يذبحوا اى بقرة موسطة .

لكن ماذا نفعل فى بنى اسرائيل .. انهم لا يطيعون الامر .. لقد ذهبوا لموسى لحل القضية ومعرفة القاتل وهاهم يؤجلون المعرفة بلجاجتهم وتنطعهم .

« **قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها** » .

عجيبة ..

اهذا يصح يا بقر .. لن نقول يا ناس .

اهذا يجوز .. ما هى القيمة التى تكمن وراء لون البقرة .. ان البقر كله لا يلاحظ لونه ولا يلتفت اليه ولا يهتم به .. ماهو الشىء الخطير الذى يحتاج الى ذهاب موسى الى الله تعالى لسؤاله عن لون بقرة .

ثم لاحظ كيف يقولون له ـ ادع لنا ربك .. ادع لنا ربك .

كأنه ربه وحده .. كأنه ليس ربهم .. كأنهم يتنصلون من عبوديتهم لله .. لا نظن ان بعدهذا التنطع تنطع .

رغم ذلك .. فعل موسى الحليم الكريم ما سألوه .. علما بأن موسى رجل سريع الغضب .. لقد ثار قبل ذلك حين عاد من ميقات ربه ووجد قومه يعبدون عجلا وألقى ألواح التوراة من يده.

القاء ألواح التوراة على الأرض تصرف خطير .

فقد الرجل حلمه .. ما رآه يفقد الحليم حلمه وهدوءه .

ان البقر لا يعبد العجل .. فكيف يهبط الانسان من مستواه لأدنى من مستوى البقر .

يعبدون عجلا !!

يعبدون زوجنا نحن البقر !!

رغم كل شىء ذهب موسى الى ربه يسأله عن لون البقرة .

« **قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين** » .

ظننت أن المسألة قد انتهت .

قتل موضوع البقرة بحثا ودرسا وتنطعا ولجاجة وتسويفا وتأجيلا وسوء ادب واستهتار ..

قتل الموضوع قتلا .. ورغم ذلك - مازال عند بنى اسرائيل مزيد من اللجاجة والتنطع ..

« قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى » .

بعد كل ما حدث لم يتبينوا ما هى .. بعد كل الأوصاف السابقة لازالوا لا يتبينون .

مدهش ..

يكاد جنبى يطق وتنفجر بطنى وينشق كبدى ..

رغم ذلك .. عادوا يقولون لموسى .

« ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون » ..

عاد موسى الحليم الكريم يسأل ربه .. وعاد يقول لهم ..

« قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشيه فيها » .

انطبقت الأوصاف على ..

ماذا تظن بنى اسرائيل قالوا ؟ .

« قالوا الآن جئت بالحق » ..

كأنه كان يلعب قبلها معهم ..

كأنه لم يكن قد جاء بالحق من اول كلمة لآخر كلمة ..

أكاد افقد طبيعتى وذاتى وانفعل ..

حين انتهت مفاوضات البقرة .. **كنت انا البقرة المقصودة أكاد اطلق** من جنابى الأربعة ..

روحى فى أنفى من الضيق ..

مت قبل موتى من لجاجة بنى اسرائيل وتنطعهم ..

اسير نحو قدرى ومصيرى .. اسير نحو السكين وانا اهـز ذيلى راضية ..

كلما تصورتهم على موائد المفاوضات مع نبيهم موسى .. كلما تذكرت لجاجتهم وتنطعهم ساءلت نفسى .

ـ اذا كانت هذه صورتهم على مائدة المفاوضـات مع نبيهـم الكريم موسى فكيف تكون صورتهم على موائد المفاوضات مع غيره ؟



هدهد سليمان



اسمى « مارهالا » .

اسم لطيف اختارته لى « هيدان » . .

سيد انا من سادة الرياح والسحاب والماء . . اطير اياما وليالى دون ان احس التعب . . لا ارى الأرض الا من عرشى الشاهق فى السماء . . واراها جميلة كلما ارتفعت وابتعدت . . ليس اسمى اللطيف اقل من قدرتى على الطيران . وليس تفوقى فى الطيران أقل من قدرتى على الرؤية . استطيع أن أرى من ارتفاعاتى الشاهقة أين يوجد الماء فى الأرض . . قد يعبر الجيش صحراء شاسعة . . نفترض أن الماء نفد . من أين نحضر الماء للعساكر والطيور والوحوش . أنا المسئول عن ارواء عطش الجيش كله .

ارتفع عموديا حتى أجاوز السحاب ثم أتوقف واخفض راسى واتأمل .

احدق بنظرى الثاقب فى الأرض . تخترق نظراتى سطح التربة الرملى وتنفذ الى ما وراءه . تخترق الحجارة الجيرية وتنفذ الى ما وراءها . . تنزل نظراتى فى الأرض وتغوص . . استخدم اشعة كونية للعثور

على المـاء .. اذا عثرت عليــه هبطت من أعلى هبوطا عموديا وحددت المكان .. أشــير بمنقارى الى المـكان الذى ينبغى ان يبدا الحفر فيه .. ويبدأ الحفر .

ينتهى حفر البئر فأهبط واستحم واشرب . اخـرج من البئر مبلل الريش فيشرب الجيش بعدى كله . لست فى حاجة لتقـديم نفسى الى القارىء ..

فهمتم أننى هدهد سليمان .. اشهر من نجوم الســماء .. أعرف ذلك . اعطانى الله ريشا ملونا حول راسى لم يعطه احدا من الطيور .. الطاووس فى احسن حالاته لا يرتدى ثيابا مثل ثيابى .. ولا يؤدى جزءا على ألف من مهامى الخطيرة العديدة التى أؤديهـا .. الطاووس مخلوق فارغ .. هو دائما معجب بنفسه دون مبـرر مفهوم .. اما انا فمتواضع رغم أهميتى الشــديدة .. أقول لـكم سرا .. أكاد احيانا احس اننى اهم مـن قائد الجيش .. راودنى هذا الاحساس مرتين او ثلاث مرات لا أنكر .. لكننى نحيته جانبا ايثارا للسلامة واتقاء لشر المتاعب .

اعترف أن سليمان انسان له هيبتــه .. أعترف اننى أخاف منه .

رغم خدماتى العظيمة التى أؤديها له .. ارانى أخاف احيانا منه .

لم اتحدث عن اخطر مهامى فى خدمته . آثرت أن احتفظ باهم أعمـالى الى النهاية . هــذه طريقتنا التقليـدية نحن العـاملين فى المخابرات .. لا نقول أهم شىء الا فى نهاية الحديث ..

نعم .. أنا « مارهالا » هــدهد سليمان ورئيس المخـابرات فى جيشه ..

ليست المخابرات مسألة ســهلة . تم اختيارى من بين عشرة آلاف هدهد .. امتحنهم سليمان جميعا فوجدنى أذكاهم وأقدرهم

على تحصيل المعلومات ونقشها فى ذاكرتى والاحتفاظ بها حية طرية وتم اختيارى يومها ..

كان يوما لا ينسى .

ملأنى الزهو .. لا أنكر ..

لا أنكر أيضا اننى احسست بخطر المسئولية . ان حياة الجيش كلها أمانة فى عنقى الجميل الذى يحيطه تاج الهى من الريش الملون .

لا تتحرك الجيوش الا اذا أعطيتها بنفسى أشارة التحرك الخضراء . انا الذى احصل على المعلومات ، وبغير المعلومات يبدو أعظم الجيوش مثل عملاق أعمى يستطيع اى طفل ان يكبه على وجهه ويهزمه .

المعلومات هى حياة الجيش .. هى عينه الخفية التى يرى بها عدوه .. وينتصر دائما فى الحروب من يرى أكثر . من يدرى عن عدوه أكثر .

مهمتى أنا أن أعرف ..

وأنا دائما اعرف .. صحيح اننى اعمل بكل أعصابى . لكننى أيضا العب بكل حيويتى .. هناك فرق بين أوقات العمل الرسمية وأوقات الفراغ الحرة ، أوقات العمل ملك لسليمان وجيشه . أعمل فيها حتى النهاية ، بعدها لا أهمل التسرية عن نفسى . هذا حقى ايها السادة الطيور .. ليس من حق أحد ان يقول لى اين كنت .. انهيت اعمالى وكنت العب .. ما الذى يعنيك انت اين كنت .. كنت اغازل هدهدة جميلة هناك ، أو كنت نائما فوق شجرة . أو كنت آكل واشرب .. ماذا تريدون منى مادمت أؤدى واجبى على الوجه الأكمل .

ليس دمى ثقيلا مثل الأسد . ولست متصنعا وقاره الـكاذب وحركته البطيئة .. اعظم ما اكرهه ان ينتقل احد من عمـله الى بيته فينقل معه احساسه بالاهمبـة ويعامل زوجته مثلما يعامل مرؤوســـيه .. بـكبرياء وعظمـة . اعتبر ذلك دليـلا على نقص النضوج .

العمل عمل واللهو لهو .. ولن تجد احدا يعرف اللهو حقا الا اذا كان يعرف العمـل حـقا . الخائب خائب فى كل شىء . فى العمل واللعب . هذه عقيدتى الثابتة . طبعا اثارت طبيعتى حولى عديدا من المتاعب وجندت لى اعداء كثيرين . لا انكر أن لى اعـداء اقوياء .

الأسد مثلا احد اعدائى القدامى .. المفروض ان الأسد يعمل جناحا أيمن فى الهجوم فى جيش سليمان .. تتبعه اسـود ونمور عديدة .. نعرف يا سيدى الأسد انك اسد .. أنك قوى .. انك ملك الحيوانات لكنك يا سيدى الأسد مهما سموت لا تستطيع ان ترتفع عن الأرض مثلى . أنا الطير الطـائر الذى يقـول لك فى أى اتجاه تمضي وبأى سرعة تنطلق وأى هدف تنقض عليه ..
يثير الأسد أعصابى كلما تذكرته ..

اعتاد الأسد كلما تغيبت أن يسأل سؤالا يبدو ظاهره البراءة وباطنه الخبث .. انه يقول : ــ أين ذهب الهدهد .

وعادة يسمع سليمان كلمة الأسد . يزار الأسد اذا تحدث كأن من حوله (طرش) لا يسمعون . مخلوق سوقى .

اعرف ان الأسد يتعمد احراجى بكل الوسائل .

لا تتوقف عداوته عند تنبيه الملك سليمان الى غيابى ، وانمـا يتطفل على أحيانا بالاسئلة . سألنى ذات يوم .

ــ لماذا لم تتزوج حتى الآن .

قلت : ارجو ان تعنى بشؤونك الخاصة .

قال الأسد : اسألك سؤالا مجردا فماذا أغضبك .

قلت : يغضبنى ان هذه مسألة شخصية بحتة . هل تحب أن اسألك أنا لماذا تزوجت .

ضحك الأسد ضحكة هزت جدران الخيمة التى نعيش فيها فازداد نفورى منه . لماذا لا يهتم بشؤونه الخاصة ويستحم . ان رائحة الأسد تزكم الانوف ، وما كلمته يوما الا وأنا أدير منقارى بعيدا عنه .

. . . .

استدعانى الملك سليمان ذات يوم .

نظرت الى الشمس فرأيتها تتهيأ لرحلة الغروب .

يقترب موعد صلاة الملك سليمان ، فلماذا يستدعينى الآن .. المفروض أن عملى ينتهى بعد قليل .. ذهبت اليه مهموما ، أخشى ما أخشاه هذا الاستدعاء المفاجىء .. أجهل ما يريدنى سليمان من أجله . ولهذا أخاف . لو كنت أعرف لما هزنى الخوف . هذه قيمة المعلومات والمخابرات . طرت نحو بيته .. وقفت ونقرت كريستال الشباك .. كل شبابيك سليمان من الكريستال الملون بينما اطار النوافذ نحاس لامع عليه نقوش من الفضة .. يغوص الجن فى أعماق البحار لاحضار الرمل الناعم ، ثم يشعلون تحته أحجارا وأخشابا حتى ينصهر الرمل ويذوب ويصنعون منه الزجاج بأنواعه .. يعجبنى سليمان .. نبى صالح وملك مهيب ، ورجل يعرف كيف يختار ثيابه وكلماته . ليس فيه من وجهة نظرى غير عيب واحد فقط . ذكاؤه الحاد .

أحيانا تتكلم معه فيخيل اليك انه يقرأ أفكارك .. او يقرأ ما بين سطور الكلمات التى تقولها والتى لا تقولها .. وفى مثل هذا

الحوار الذى يجـرى بين طرفين غير متكافئين - لابد أن تنهزم .. وانا لا احب أن انهزم ..

مخلوق أنا اصلا للانتصار .. سمح لى الملك سليمان بالدخول.

دخلت الحجرة .. كانت احدى زوجاته تجلس عند قدميه .

حنيت رأسى بتحيـة عميقة وقلت : السـلام على النبى الملك سليمان الحكيم .

اعرف ان هذه هى الالقاب التى يحبها سليمان ..

قال سليمان ساخرا : السلام على الهدهد الذى يعشق اللعب أكثر مما يعشق عمله .

كبستنى الملاحظة أمام زوجته . حنيت رأسى ونفشت ريشى الملون فانعكست عليه أشعة الشمس وظهر التاج الذى وضعه الله على رأسى أجمل من التاج الذى صنعه الجن لسـليمان .. فهم سليمان مغزى الحركة وابتسم ..

قال جادا : لم تقدم الى تقريرك الاسبوعى منذ ثلاثة أسابيع .

قلت ـ سيدى القائد .. ليس هناك جـديد على الاطلاق .. يعمل الجن بمنتهى الاخلاص ، ويشـتغل الجنـد بأقصى الطاقة ، وتمضى الأحوال هادئة فى المملـكة .. وقـد فهمت من حديثك انه لا داعى لتقديم تقرير اذا كان كل شىء فى موضعه .

قال سـليمان وهو يقطب : انت لا تفهمنى يا مارهالا .. لماذا تتصور ان عملك يقتصر على كتابة التقارير .. هذا اسلوب تقليدى فى عمل المخابرات .. المفروض أن تعطينى احساسا بأنك تبتكر فى عملك ..

قلت : حدثنى الملك النبى قبل ذلك انه راض عن عملى .

قال سليمان برفق : تعرف ضعفى ازاءك يامارهالا .. تعـرف

انني احبك .. راض أنا عن ذكائك ولست راضـيا عن عملك . لم تقدم الى فكرة عبقرية تجعلنى احس انك تستحق دخول التـاريخ .. مازال عملك عاديا ..

انحدرت قطرة من العـرق على جبهتى .. أحسست الحـرج وفكرت فى حبيبتى هيدان .. قال سليمان كأنه يقرأ أفكارى :

ــ هل تعرف انثى من بنى جنسك تحمل اسم هيدان .

قلت ــ نعم .

قال ــ سمعت انك تنوى الزواج منها .

احسست أن سـليمان يورطنى فانطويت على الصمت ، اعرف انه يعرف رايى فى الزواج .

عاد سـليمان يقول ــ لو كنت تعطى لعملك نصف عبقريتك فى اللهو لصار لك شأن عظيم .

أشار بيده أن انصرف فانصرفت مهموما مثقلا .. حائرا بين سليمان وهيدان . تقول لى : أنت دائما مشغول ، ويقول سليمان لى : أنت دائما تلعب . وقد طالت حيرتى بينهما ، ولم أعرف كيف أرضيه أو أرضيها . هى مأساة العباقرة فى كل الأزمنة والعصور .. انصرفت اليها .

كانت خارجة من النهر بعد أن استحمت . لم تكد ترانى حتى فردت جناحها الأيسر . القيت بنفسى فى احضانها ووضعت رأسى على رقبتها وتنفست . تطاير الريش الجميل حول عنقها ..

سألتنى وهى تغمض عينيها : سمعت ان سليمان يريدك .

قلت ــ قادم لتوى من عنده .

قالت بغيظ ــ لو كنت تعطينى نصف ما تعطيـه لعملك لصرت اسعد هدهدة فى الدنيا .

قلت بضيق ـ قال سليمان عكس ما تقولينه الآن . يعطلنى الحب عن النجاح فى العمل ..

قالت بدلال ـ سليمان يتجنى عليك ويظلمك .

قلت بحسم ـ غير صحيح .. انت وحدك الظالمة يا هيدان .

قالت باكية ـ انت دائما مشغول ، دائما مسافر . دائما فى اجتماعات مع مرؤوسيك . انت اما ذاهب الى سليمان واما قادم من عنده . أين مكانى فى حياتك .. أين انا فى قلبك .

قلت فجأة ـ اسمعى يا هيدان . انت أجمل هدهدة فى الدنيا .. وعندما اموت سوف احلم حلما واحدا يبدأ بمنقارك وينتهى بمنقارك . لقد اعطتنى كلماتك فكرة عبقرية . تقولين اننى دائما اسافر . لم اسافر منذ فترة طويلة . هـذا سر خمولى فى العمل .. سأسافر اليوم .. سأتجه جنوبا الى جبال اليمن . قلبى يحدثنى اننى سأعود بعمل طيب ، وهناك ايضا بدل السفر .

. . . .

اطير مرتفعا محلقا متعجبا من غرابة الاناث .. تقول كل هدهدة عرفتها ما تقوله هيدان . غير أننى أميل الى هيدان . لو كانت أقل غيرة لتزوجتها . أخشى أن تفسد الغيرة حياتى . ما أجمل مشهد الأرض من ارتفاع شاهق . تبدو الصحراء مثل بساط من الذهب ، ثم يجىء البحر مثل ثوب من الفيروز الازرق ، ثم تجرى الحقول الخضراء تحت صدرك ، احس بيد ذى الجلال الخالق وهى تسوق السحاب الى قمم الجبال الملونة . يصطدم السحاب بالقمم ثم يهبط الثلج مثل قبلات بيضاء .

خشع قلبى خلال طيرانى السريع .. رحت أسبح بحمد الله تعالى خلال طيرانى فازداد ارتفاعى دون أن أحس أو أشعر .. انهيت تسبيحى . فقلت اتأمل الارض بحثا عن المياه .

عثرت على ثلاث مناطق للمياه لم تكتشف بعد فى صحراء مهجورة .. حددت فى ذهنى مناطق المياه وزدت سرعنى .. أليس مدهشا اننى أطير دون أن أعرف سر الطيران ..

ها هى أسوار سبأ ..

الاسوار بيضاء والطرق واسعة والحقول كثيرة والقصور عديدة وهناك حرس كثيف فى الطرق ، وثمة معبد هائل مكشوف تملأ الشمس ساحته .

رجحت فى نفسى انهم أغنياء وأقوياء من شكل مدينتهم .. ان طرقهم مستوية لا تعرف المطبات ، واسطح المنازل نظيفة وتمتلىء باصص الزرع .. اخترت شجرة عالية فى أكبر قصر فى المدينة ووقفت ..

رايت هدهدة لطيفة .

حييتها باحناء راسى وادرت وجهى عنها. رحت أفكر فى طريقة لحملها على الكلام . لم استغرق وقتا طويلا فى التفكير ..

هوايتى المفضلة حمل الآخرين على الكلام .

قلت وانا انفض ريشى فجأة ـ اليست هنا انهار قريبة .

قالت الهدهدة ـ هل أنت غريب .

قلت بحذر ـ سائح فى ارض الله . اليست الارض ملكا لله .

قالت الهدهدة ـ وهى تقترب من غصنى أكثر ـ الارض هنا ملك للشمس . شعرت بحاسة المخابرات الخفية أن فى الجو رائحة عمل .. اقتربت منها قائلا بود .

ـ كيف تكون الارض ملكا للشمس ايتها الهدهدة الوديعة .

قالت الهدهدة بسذاجة وصراحة ـ هنا يسجد الناس للشمس فاجأتنى كلمتها وقفز سليمان لذهنى على الفور .. اخيرا

عثرت على قضية خطيرة.. قضية لم أكن احلم بهـا قط .. ناس يسجدون للشمس .. اليست هـذه خيـانة عظمى لقيـم الله .. اليس سليمان نبى الله وسيفه فى الارض .. تدخـل القضـية فى اختصاصه اذن .. احسـست اننى قد صادفت يومى السعيد على الارض .. خبطة هائلة ..

ملأت صدرى سعادة غامرة وأردت ان أطير واصرخ من الفرح وافرد تاج الريش فوق راسى وأقبضه .. ولكننى امسكت اعصابى كأى رئيس عتيد للمخابرات ..

التفت الى الهدهدة متمتما بهدوء ولا مبالاة :

ـ لطيف جدا .. لطيف جدا ..

سألتنى البلهاء ـ ما هو الشيء الذى تراه لطيفا فى ..

قلت مجاملا ـ طريقتك فى نطق الكلمات .. اننى هدهد يسافر كثيرا ويرى كثيرا ويعـرف كثيرا .. لم ار مثلك هدهـدة تنطـق الكلمات بهذه الوداعة .

ارتعش الغصن الذى تقف عليه ، أصاب السهم هدفه ، رايتها تفرد اجنحتها بحركة تبدو غير مقصـودة .. كانمـا لتنفض عنها التراب . ارادت أن ترينى رشـاقتها .. لا بأس بها على أى حال . لم أكن فى حـالة تسـمح لى بالتفكير فى الحب .. ما هى الخطوة التالية . اريد أن اعرف أكبر قدر من المعلومات عن هـذه القضية على الفور .. لكننى لا أستطيع أن ابدأ استجوابى لها كى لا اثير شكوكها .. يجب أن يبدو كل شيء طبيعيا كجزء من حديث عفوى عن الطقس أو الشجر أو الطعام أو الانهار .

فردت تاج الريش فـوق راسى ونفشت صـدرى وصـفقت بأجنحتى واريتهاكم انا ساحر وجذاب .. واقتربت الهدهدة مـن الغصن الذى أقف عليه أكثر .

قالت ـ لم تحدثنى عن نفسك . من اين انت قادم . الى اين انت ذاهب . هل عندك هداهد صغيرة . . ماذا تأكل . كيف تجد طعامك . اسمك . متى ولدت .

آه . . أراها هى التى تستجوبنى . . قررت أن الجأ لأسلوب الهجوم الساحق .

فردت جناحى الايمن وضربت الفصن الذى تقف عليه ضربة قوية مفاجئة فكادت تسقط من فوقه . مالت قليلا الى الأمام واختل توازنها فتلقيتها بجناحى الايسر . ورأت نفسها تقف على نفس الغصن الذى أقف فوقه وقد اقترب منقارى من منقارها . .

لو رآنى سليمان لظن اننى العب ، ولو رأتنى هيدان لتصورت أننى أخونها ومزقت الهواء بصراخاتها الغاضبة . . خطأ . . هذه النظرة خطأ . . هو عمل نؤديه من أجل مهنتنا . . وكل شىء يهون اذا تعلق الامر بالمعلومات . عرفت منها عدد الناس فى سبأ . وحدثتنى عن عدد الجنود والضباط . اخذتنى لمخازن أسلحة الجيش فالتقطت لها صورة بعينى وأودعت الصورة فى عقلى . ارتنى مداخل المدينة ومخارجها وأنهارها التى تشرب منها . شاهدت حقول الفلاحين ومصانعهم وبيوتهم . أخذتنى من جناحى الى معبد الشمس الذى يسجد فيه الناس للشمس . ورأيت قرصا عظيما من الذهب المحلى بالجواهر . وهو قرص تنعكس عليه أشعة الشمس فيبدو وهجه يخطف البصر . . ولا أنكر أن ضحكة أفلتت منى ونحن نشهد معبد الشمس فنظرت الى الهدهدة باستغراب . اخذتنى لقصر الملكة التى تحكمهم فرأيت امرأة على قدر غريب من الحسن . . لم أر لها مثيلا فى قصر سليمان . ولاحظت أن ملابسها تغطى قدميها وتنسحب وراءها وهى تمشى ، وقدرت انها امرأة متحشمة محافظة ، ثم افهمتنى الهدهدة أن فى احدى قدميها عيبا فهى تخفيهما معا . لم تكن متزوجة . . ولكنها تملك

شخصية امرأة تشبه شخصية الرجال .. رأيتها تعامل رؤساء قومها ووزراء مملكتها ومستشاريها معاملة حاسمة .

عيبها الوحيد هو سجودها للشمس . رأيتها وقومها يسجدون للشمس .

كان عرشها آية من آيات فن النحت العظيم .. سجلت فى ذهنى أوصاف عرشها الكاملة .

انتهى ما جمعته من معلومات . مكثت خمسة أيام فى عاصمة المملكة وقراها البعيدة . عرفت طول الطرق واتساعها وعرضها وقدرتها على احتمال المركبات الحربية لسليمان ، بعد أن قدرت فى ذهنى انه ربما يريد مهاجمة المملكة .

استطعت تجنيد الهدهدة اللطيفة التى التقيت بها فى سبأ . دون ان أكشف لها شخصيتى .

أثارت بعض المتاعب فى البداية حين لاحظت أن اهتمامى بملكة سبأ أكثر من اهتمامى بها ، ثم أفهمتها اننى هدهد فضولى هوايته طرح الاسئلة . اطمأننت منها الى أن أحدا من الناس فى سبأ لايعرف لغة الطيور والوحوش والحيوانات مثل سليمان .. ورغم ذلك لم احدثها عن حقيقتى أو مهمتى . من يدرى . الاحتياط أفضل ..

بعد انتهاء مهمتى تماما فى سبأ . فكرت أن ألهو قليلا . أليس هذا حقى .. انتهى عملى على الوجه الاكمل فأى ضرر فى قليل من اللهو .

قلت لزميلتى وتلميذتى الهدهدة : نريد مكانا ريفيا فيه ديدان فى الارض ونهر قريب . وصحبتنى لشاطىء ريفى جميل ..

قضيت ثلاثة أيام تشبه الحلم .. هدوء مطلق وريف وادع وخير عميم وصمت مريح للاعصاب . رتبت المعلومات فى ذهنى أول يوم وصلنا فيه ثم قضيت اليومين التاليين مع الهدهدة .

لا شيء يريح عقل الهدهد المرهق مثــل ثرثرة فارغة يســمعها من هدهدة تحبه . كانت تسألنى لماذا لا نسافر الى مصر . يقولون أن هناك ريفا رائعا يمتلىء بالطمى وحظائر تحفل بالطعام . قلت لهــا ردا على ثرثرتها : أن فى مصر زحاما من الهداهد ومشكلة اســكان هدهدية وأنا لا حب الزحام والضجيج .

كنت أقول اى كلام لأصد نفسها عن الذهاب سألتنى يوما الم افكر فى الاســتقرار والزواج ؟ وما هــو الشىء الذى احــلم به افضل من ذلك ؟ .

لم أقل لها هل تتصورين أننى هدهد صايع بلا عمل .. لم أقل لها أن ورائى مهاما خطيرة فى جيش سليمان .

تذكرت سليمان فى اليوم الثــالث . قلت لنفسى ماذا لو كان احد الجن فى جيشــه يتمشى قريبا من هنــا فرآنى أعبث والهــو واستمتع بهذا المصيف الريفى الهادىء ..

ماذا لو نقل الصورة لسليمان .

يذبحنى سليمان لو عرف .

قلت للهدهدة فجأة : سأرحل غدا .

قالت : خذنى معك .

قلت : ليتنى أستطيع .

قالت : لماذا لا تستطيع .

قلت : سأعود اليك مرة ثانية .

بدات تبكى وهى تلصق راسها بصدرى فقلت : دموعك تمزق قلبى ولكننى مضطر للرحيل وسوف تفهمين يوما لماذا ارحل .. لقد أحببتك ولكننى يجب أن أسافر .

قالت يائسة منهارة مهــددة : سأتوقف عــن تناول الطعــام والشراب لو ذهبت غدا .

قلت ــ بل أنا الذى ينتحــر اذا مكثت غــدا . انت لا تعرفين سليمان .

قالت ــ من يكون سليمان . .

قلت ــ اخى الكبير وسيدى وتاج راسى .

هناك مشكلة عائلية تستوجب سفرى غدا . اريد ان اســافر وفى ذهنى صورتك وانت تضحكين . . ابتســمى ايتها اللطيفة . . ابتسمى . . لم استطع ان انام ليلتها . .

فى منتصف الليل تركت فراشنا الدافىء وسط اغصان الشجر . . وطرت نحو السماء بلا صوت . .

قلت لأجنحتى : اقصى ارتفــاع واقصى سرعــة . نمت اثنــاء الطريق فطرت طيرانا آليا . . وصلت الى خيمة الطيــور فى جيش سليمان .

وصلت فاذا الدنيا كلها مقلوبة على .

لم اكد ادخل خيمة الطيور حتى اسرعت نحوى عشرات الطيور فزعة مرتعدة تسأل ــ اين كنت . اين كنت .

تشاءمت من طريقة الاستقبال وقلت مدعيا رباطة الجأش ــ ماذا حدث . . ولماذا تصرخون هكذا ؟

قالوا خرج الملك ســليمان فى جولته على الجيوش . . مر على الجــن ، ومر على الوحوش . . ثم جــاء الى خيمتنــا . . ناديت العصفور ــ وكان يعمل مديرا لمكتبى ــ وسألته ماذا حدث . قال حدث ما قالوه لك . جاء الملك سليمان .

« وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذابا شديدا او لأذبحنه او ليأتينى بسلطان مبين » .

ارتعشت عظامى فتظاهرت بالثبات وسألت .

ـ هل قال سليمان كل هذه التهديدات .

قال العصفور ـ قالها كما نحكيها لك بغير زيادة وبلا نقص .

قلت للعصفور ـ ماذا كان ردك أنت .

قال العصفور ـ اردت ان اقول انك فى مهمة ولكن منقارى كان يرتعش ويصطك فلم استطع ان اكمل الكلام .

قلت لمدير مكتبى ـ لا تخش شيئا . . مركزنا ثابت وقد كنت فى مهمة . ماذا قال اعدائى عنى وكيف استغلوا الموقف .

قال العصفور ـ برزت أنيابهم جميعا وقال كل واحد منهم كلمة كسم الثعبان . قالوا أنت طيب ولطيف ولكن . بعد كلمة لكن الحقوا بك نقائص الدنيا كلها ياسيدى . واتهموك باللعب والاهمال . . نحن فى مأزق يا سيدى .

قلت ـ لا تهتم . . سأتخلص من المأزق .

تظاهرت بالثبات ورحت اتمشى ولكننى وجدت نفسى سأقع مغشيا على . كنت ارتعش ولا أعرف كيف يستقبل سليمان تغيبى عن سبأ .

ربما لايصدق . ربما تصور أننى اختلق له قصة وهميه لتبرير غيابى . .

وصلت هيدان ممزقة الريش باكية . ارتمت على وصرخت .

ـ اين كنت . سليمان يهدد بذبحك . . وهو غاضب أشد الغضب . كان الموقف دقيقا . ان هدهدتى الحبيبة مرعوبة . . صرخت فيها أن تكف عن البكاء فكفت . قلت لها آمرا . . من يظننى سليمان . . يسىء فهمى هذا الملك العظيم ويتصور اننى ألعب ، سأحاسبه على رايه فى افضل جنوده . نفشت صدرى وقلبى يرتعش من الداخل .

سكنت هيدان واطمأنت من وثوقى .. ومضيت بتراب السفر نحو قصر سليمان . ومضيت وقد تنازعتنى الاحاسيس المتضاربة المختلفة .. كنت خائفا وحائقا ويائســا وآملا ومرعوبا وشــجاعا فى نفس الوقت . قيل لى ان سليمان يأكل . وقد أمر الا يدخل عليه أحد قلت للحارس : تنح عن طريقى فلم آت هنا لألهو أو العب .. معى اخبار لاتحتمل الانتظار لحظة .

لم يفهم الحارس ما قلته له . لايفهم لغتنا أحد غير سليمان . سمع النبى وهو يأكل صرخاتى الغاضبة فأمر أن ادخل عليه .

دخلت غرفة الطعام ووقفت فى الطرف الثانى من المـائدة بعيدا عن يده .. قلت لسليمان وهو لم يضع سكينه بعد :

« أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبآيقين » .

لم اكـد اقول لســـليمان « أحطت بمـــا لم تحط به » حتى احســـت اننى دخلت التاريخ . من الــذى جرؤ قبلى على قولها له . ومن الذى سيجرؤ بعدى على قولها له .

لا أحــد .

اننى اقول لسليمان بنبرة هجومية : أننى أعرف مالا تعرف .

هى جراة دفعنى اليها اليأس والخوف . كنت مضـــطرا لهذا الاسلوب . افضل طرق الدفاع أن تبدأ بالهجوم . يعلم الله ــ خالق سليمان وخالقى ــ اننى كنت أرتعش من الداخل وانا أقولها له . وضع سليمان سكينه فى الطبق الذهبى وانحنى على المائدة واطلت من عينيه نظرة دهشة . عدت أقول له قبل أن يفيق من دهشته :

« انى وجدت امرأة تملـكهم وأوتيت من كل شىء ولهـا عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشــمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون » .

كان سليمان يتابع ما أقول بدهشة فى البداية ، ثم بغضب ، ثم بدا على وجهه الاهتمام . أدركت انه يصغى بعمق . قلت استغل

طوق النجاة الممدود فانشأت اتحدث « **ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا اله الا هو رب العرش العظيم** » .

كانت هذه الجملة الاخيرة اصلا من كلمات سليمان التى يقولها للناس وهو يدعوهم الى الله . وقد وجدت المقام مناسبا للاستشهاد بها فى حديثى عن سبأ . انهيت كلامى وانتظرت .

نكس سليمان راسه ، وزوى ما بين حاجبيه ، وراح يفكر .. وساد صمت . ارتفعت دقات قلبى حتى خيل الى أنها تملأ فراغ القاعة الهائلة وتكاد تزحزح الجدران من مكانها .. اخيرا رفع سليمان راسه وتحدث « **قال : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين** » .

أحسست ان ضغط دمى يعود لحالته الطبيعية .. لقد نجوت مؤقتا .. انشأت اتحدث بسرعة . قلت لسليمان كل ما جمعته من المعلومات عنها .. حدثته عن عرشها الهائل الذى يعتبر تحفة فنية من تحف الصناعة الذهبية . حدثته عن معبد الشمس الذى يقيمون فيه شعائرهم ويسجدون .

حدثته عن عدد قوات المملكة والجيش واستعداداتهم ، باختصار ، وضعت أمام ذاكرته كل ما جمعته من المعلومات .

أمر سليمان باحضار ورقة وقلم .. كتب شيئا فى الورقة ثم اغلقها ومدها الى . وقال :

« **اذهب بكتابى هذا فالقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون** » طرت من نهاية المائدة والتقطت كتاب سليمان بمنقارى ولويت عنقى وتهيأت للرحيل ..

تحسست الخطاب بمنقارى وقلت لسليمان .

ـ سيدى القائد .. الرحلة طويلة وتيارات الهواء فى أعالى الجو

قـد تمزق ورق الخطاب . اقترح أن نضـــعه فى غـلاف ذهبى يقيه الهواء

أمر سـليمان بصـنع غلاف من الذهب للخطاب . وامرنى ان احضر فى الصباح لاستلامه وبدء المهمة .

كانت أمامى ساعات كاملة حتى يجىء الصباح . . خرجت من قصر سليمان مزهوا أحس إننى نجوت .

سألنى مدير مكتبى (العصـفور) ـ ماذا حدث ياسـيدى الهدهد . أراك قد نجوت . قلت بكبرياء أوقفه عند حده ـ اهتم بعملك انت . هل رايتنى مهـددا لتقول اننى نجوت . سـألتنى هيدان بلهفة ـ ماذا قال لك سليمان وماذا قلت له .

قلت لها برصانة ـ هذه اسرار عليا فاهتمى بريشك الممزق .

مررت على اعدائى جميعا . مررت على الشـامتين بنا ، كـان الأسـد قد قال كعادته كلمة رديئة فى حقى حين تحدث سـليمان عن ذبحى . . قال الأسـد بعد أن غادر سليمان الخيمة : الهدهد فعلا يستحق الذبح .

ها قد جاءت فرصتى لأرد له تحيته . .

سألنى الأسد بصوته الجهورى السوقى ـ أين كنت يامارهالا . . قلت للأسـد : متى كان قادة المخابرات يحدثون الجند أين كانوا انت جندى ايها الأسـد . . انت مجرد قـوة يوجهها عقل آخر . . اهتم بشؤونك وستعرف حين تصدر اليك الأوامر بالحركة أين كان مارهالا . كنت أختال مزهوا وقد أغلقت فمى تماما . لم أقل لاحد ولم يعرف أحد ماذا دار بين سليمان وبينى . تركت كل واحد يحفر فى ذاكرته ويجهد نفسه . ومضيت صامتا يحف بى جو من الغموض والخطورة . قلت لكم أن مهنة المخابرات مهنة شاقة .

انتهى غلاف الخطاب فحملته وطرت به الى سبأ . دخلت غرفة نوم الملكة ووقفت على أحد النقوش البـارزة فى السقف واسقطت

الخطاب عند راسها . استيقظت بلقيس . . عيناها جميلتان حقا . . ولكنها تعبد الشمس للاسف . فتحت الملكة الخطاب و قراته . رايت من مكاني في السقف أن قلبها يدق بعنف . لا اعرف حتى الآن ماذا قال سليمان لها . دقت ناقوسا الى جوار فراشها بحضر ثلاثة من الخدم ، أمرت بعقد اجتماع للوزراء وممثلى لشعب على الفور . راحت تتلفت حولها لتعرف من اين جاءها لخطاب . . التصقت أكثر بالسقف كى لا تراني . دخلت هدهدتى لسبئية الحجرة . . طارت نحوى وهى تبكى وتصرخ .

ــ اين انت يامارهالا . . دخت عليك يا حبيبى فأين انت . اذا تفعل فى مخدع الملكة . . هل تبحث عنى هنا . . ما الذى جاء ك بهذه السرعة . هل حللت المشكلة العائلية .

قلت لهدهدتى بحسم ــ اصمتى قليلا فان وراءنا عملا اهم .

القت الهدهدة بنفسها على وراحت تقبلنى . ونظرت بلقيس ى السقف فرأتنا معا . . تأملتنا قليلا ثم نهضت مسرعة تأخذ نمام الصباح . كان واضحا أنها مشغولة تفكر فى خطاب سليمان.

مكثت فى سبأ يومين . وعدت طائرا بأقصى ارتفاع وأقصى رعة . وجدت سليمان يتفقد جيشه . . قلت له . هل تمد الى ـك أيها الملك لأستند اليها فاننى مجهد من الطيران .

مد الى سليمان يده فوقفت عليها . سألنى عما تم فى أمر سالته . قلت له ألقيتها على الملكة . فاستدعت على الفور وزراءها رجالها وممثلى شعبها و . . . « **قالت يا أيها الملأ انى ألقى الى تاب كريم . انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم . الا علوا على وأتونى مسلمين . قالت يا أيها الملأ افتونى فى أمرى ا كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا : نحن أولو قوة وأولو أس شديد والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت ان الملوك اذا**

دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ، وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » .

سألنى سليمان ـ ما هى ملاحظاتك الخاصة على ما حدث .

قلت ـ اعتقد ان ديموقراطيتهم صورية .. فانها سألتهم رايهم فحدثوها عن قوتهم ثم فوضوا اليها الأمر فى النهاية . هم قوم بلا راى . ثم انهم يتصورون انهم يحاولون شراء سكوتك بهدية . ضحك سليمان طويلا فاستراحت أعصابى .

وصل رسل بلقيس يحملون هديتهم . كنت أول من عرف الخبر . انبأتنى هداهد الاستطلاع بكل شىء ، هناك هداهد طائرة فى الجو طوال الليل والنهار . هؤلاء هداهد مخابرات يتبعوننى ويعملون تحت امرتى .. قسمت العمل فيما بينهم ليحملوا الى اى خبر عن اى قدم غريبة تدب فى المملكة . عرفت اوصاف الهدية منهم وحدثت الملك سليمان عنها وانا أقاوم الضحك . كانوا فرحين بهديتهم يتصورون انها شىء عظيم . كانت الهدية بالنسبة الينا .. اقصد بالنسبة لسليمان .. شيئا عاديا ، أخلط كثيرا بين سليمان وبينى هذه الايام . وذلك شىء خطير .. اعترف بذلك . قابل الملك سليمان رسل بلقيس وهو جالس على عرشه وحوله أسود من الذهب واسود حقيقية . تثاءب احد الاسود الحقيقية فحدثه سليمان بلغته أن يكف عن التثاؤب ، وسأله اين كان سهران ليلة الامس . كان هذا هو الأسد السمج الذى لا يكف عن ازعاجى . قلت لسليمان : ان الأسد كان يغازل انثى جديدة ألحقت بسلاح الاسود .. اعتدل الأسد فى وقفته وشد صدره لأعلى ثم زار معتذرا . اغمى على رئيس وفد بلقيس من المفاجأة وكان عجوزا شيخا لم ير فى حياته اسدا حقيقيا . رفض سليمان هديتهم وافهمهم انهم يخطئون لو حاولوا شراءه بالذهب . اشار الى ذهب الحيطان والأرض والتماثيل وافهمهم انه لا يطلب سوى اسلامهم .

هددهم سليمان بالغزو .. يعجبنى سليمان فى ايجاز عبارته الدال على قوته . انه لا يهوش ولا يعمد الى التضخيم شأن الضعفاء .. تغنيه قوته عن ذلك . دعونى اذكر نص عبارته لرئيس الوفد بعد ان أفاق : ((**فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون**))
انصرف الوفد وقد لمحت وجوه أعضائه بعرق الخوف البارد .
وجلس سليمان مطمئنا واثقا .

مرت الأيام . عاودت حياتى الطبيعية ونجا عنقى من الذبح وظهر صدقى . مشكلة المشاكل بالنسبة للمهمين من أمثالى الهداهد ، انهم مهددون بالذبح فى أى وقت .. اما قمة المجد أو سيف سليمان على الرقبة .. ليس هناك حل وسط فى الموضوع . هذه هى السمة البارزة فى حياة العظماء . يعيشون دائما وسط الخطر . أعرف هدهدا متوسطا فى كل شيء . يعيش فى أمان مطلق .. لكن احدا لم يسمع باسمه ، بينما أنا .. لا أريد أن أتباهى .. يعلمنا سليمان التواضع الشديد ويقول لنا دائما : ان العظمة الحقيقية تكمن فى التواضع ، لأن الله سبحانه هو الذى يملك وحده حق الكبرياء ، ان قوته تستند الى قوته ،أما البشر الفانون والهداهد الفانية وكل ملوك الأرض وحكامها الفانون . فهؤلاء يعطيهم الله . ولو شاء لامسك عطاءه عنهم فضاعوا .. كيف يفخر الانسان أو الهدهد بذكائه أو منصبه أو ثرائه أو قوته ، اذا كانت القوة والذكاء والمنصب والثراء كلها ليست ملكا لنا . وانما هى عارية مسترجعة وقرض مسترد . يجب الا افخر او أتيه أو اتكبر .. ها انذا أخفض رأسى وافرد أجنحتى واصلى .. الحمد لك يارب .. خلقتنى هدهدا ذكيا وكان يمكن أن تخلقنى هدهدا غبيا . وخلقتنى فى مركز عظيم وكان يمكن أن تخلقنى فى مركز بسيط .

وخلقتنى أصلا وكان فى قدرتك ألا تخلقنى أساسا .. لك الحمد لك المجد . لك الكبرياء . لك الملك . لك الحكم .

اللهم أن القضية توشك على الانتهاء فانصرنى فيها. أريد أن أكون سببا فى اسلام الناس يارب .

. . . .

كان الملك سليمان يجلس على عرشه وحوله وزراؤه وقادته من الجن والانس ، والطيور والوحوش ، حين التفت الى يسألنى فجأة : ما أهم شىء لفت انتباهك فى مملكة سبأ ؟

قلت : عرش الملكة ، واحساس الناس بأنهم متقدمون فى فنون البناء والتشييد والصناعة والنحت .. تركنى سليمان وأدار بصره فى وزرائه وقادته ورجاله ؛ احيانا لا أفهم سليمان ، أحيانا تبدو أسئلته غريبة . غير أن تقدم الوقت بى يجعل أشد أسئلته غرابة يتكشف فيما بعد عن حكمة عظيمة .. تكلم سليمان فجأة .. **« قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وانى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك . فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم »** .

شاهدت بنفسى ما حدث .. وأعترف انى ذهلت . ان عرش بلقيس كان قاعدة من الفضة المطعمة بالذهب . وكان كرسيا من الذهب المطعم بالفضة ، وكان حائطا عليه رسم الشمس ، صنع كله من الذهب والفضة ، كان الغطاء النقدى من الذهب والفضة لمملكة سبأ موضوعا كله فى العرش . وكان العرش ثقيلا ، يزن ما يقرب من عشرة أشجار ثقيلة ، وكان بعيدا مسافة طيران يوم

كامل من هدهد سريع مثلى .. ورغم ذلك جاء العرش . امتحن سليمان رجاله فقال العفريت انه يستطيع احضاره قبل أن يقوم سليمان من مقامه ، وكان سليمان يقوم من مكانه بعد ساعتين .. وقال الذى عنده علم من الكتاب انه يستطيع احضاره فى لمح البصر .. فى اللحظة التى بربش فيها سليمان بعينه كان العرش امامنا ..

اعرف ان الناس ستسأل : من هو الذى عنده علم من الكتاب ؟ .. ما اسمه ؟ .. وكيف أحضره ؟ .. واى كتاب هذا الذى يمنح هذه القوى الهائلة ؟ .. واعتقد بينى وبين نفسى ان هذه أشياء تخص سليمان وحده .. المهم فى القصة وجود مخلوق بهذه القدرة فى مجلس سليمان .. مخلوق ليس نبيا ولا ملكا .. مخلوق عنده علم من الكتاب .. شيء آخر غير كتاب الجن .. فان عفريت الجن كان سيحضر العرش فى ساعتين .. لن أقول اسم من أحضر العرش ، ولن اتحدث عن كتابه .. من لا يرى قدرة الله فيما حدث ويكتفى ، ويسأل أسئلة فضولية لا يستحق عناء المناقشة .. ثم انكم تنسون اننى رئيس المخابرات فى جيش سليمان .. تنسون أن مهمتى الأولى هى كتمان السر بعد معرفته.

وانا اعرف من احضر العرش .. أعرف كيف أحضره .. لكن عبثا تنتظرون ان احكى .. لن أقول أبدا .. من يدرى ربما وقعت هذه المذكرات فى ايد غريبة .. ليقل سليمان اذا كان يريد أن يقول . .أما أنا فانى أغلق منقارى على السر واصمت ..

أمر سليمان بتنكير عرشها .. امر بتغييره . .أمر بوضع الاحجار الكريمة والماسات واللآلىء فى أماكن غير مكانها الأصلى حول قرص الشمس .

لم أفهم لماذا يفعل سليمان ذلك .. احيانا لا أفهم سليمان .. امر أيضا ببناء قصر على البحر .. كان الأمر يقضى بأن يكون القصر

ممتدا بنصفه فى البحر .. أمر سليمان بأن تصنع ارض القصر من الكريستال الشفاف ، بحيث يرى السائر فى حجرة الطعام مثلا قاع البحر بأسماكه الملونة وأحيائه المائية . .امر ان تصنع الجدران من خشب الصندل المعطر ، وان تصنع الأسقف من الزجاج الملون الذى يمسكه الذهب بحيث تسقط أشعة الشمس على السقف فتنهار الى الوانها السبعة الاصلية وتلون الحجرة . وبذلك تستخدم الشمس خادما للانسان كما خلقها الله . .امر سليمان ان يتم بناء القصر فى اقل من الفترة التى يستغرقها وصول بلقيس من سبأ الى مكاننا .. انتهى بناء القصر . فأمر سليمان أن يوضع عرش بلقيس بعد تغييره وتنكيره واخفاء معالمه فى قاعة الاستقبال فى القصر .. أمر أن تفتح الجدران أمام العرش . بدأت أفهم تصرفات الملك سليمان .. انه لا يريد أن يناقش بلقيس كثيرا .. يريد منها أن تفهم حين ترى ملكه ومجده ، وتقارن ملكها الصغير المتواضع به ، يريدها أن تفهم أن عبادة الشمس أو عبادة أى مخلوق آخر . لا يمكن أن تؤدى للنجاح أو التقدم ، وان ادت لما يشبه النجاح والتقدم . لا يتقدم الا من يسلم وجهه لله أولا .. ثم يأخذ بأسباب العلم ثانيا .

أدركت ذلك وصدقت الأيام ظنى ، وأسلمت بلقيس مع سليمان لله رب العالمين . .

« قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ، قالت كأنه هو . وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ، وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين . قيل لها ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها . قال انه صرح ممرد من قوارير . قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

لم تكد تقولهـا حتى وقفت امام الملك سـليمان .. صـفقت بأجنحتى وقلت :

ـ سيدى سليمان الحكيم .. ربحت لك القضية . وانقذت نفسا انسانية من دمار الهلاك . وانقذت معها شعبها من غباء عبادة غير الله ..

قال سليمان : ماذا تريد يا مارهالا ؟.. انا راض عن عملك .

قلت : أين مكافأتى ؟

قال : اختر ما شئت من أمرين ، أن نزيد مرتبك ، أو نعطيك وسام لهداهد من الدرجة الأولى .

قلت : لا يكفينى الأمران معا .. اريد أن أدخل التاريخ .

قال : سأعطيك اسمى .. سنسميك هدهد سليمان .

تساءلت : الست هدهد سليمان .

قال سليمان : أنت هدهد سليمان .. لكننى سأعلن فى أرجاء الأرض جميعا نسبتك الى .

قلت لسليمان : لا تسعنى الدنيا كلها يا سيدى .. لـكننى اطمع فيما هو اكثر ..

قال سليمان دهشا : ماذا تريد يا مارهالا .

قلت : اريد ان يمتد ذكرى فى التاريخ .. أريد أن يسمع الملايين عن هذه القضية .. اريد أن يعرفنى الناس بعد موتى ابتداء من اليوم الى يوم القيامة .

قال سليمان بوداعة : ليس هذا بيدى يا مارهالا .. هـذا أمر يملكه الله وحده ..

قلت : أعرف ذلك أيها النبى العظيم .. أعرف .. لكنك تملك ان تدعو الله أن يخلد اسمى على الزمن .. رفع سليمان رأسـه وسألنى فجأة :

ـ مارهالا .. أيكون الغرور قد أصابك . أتكون قد ظننت نفسك شيئا ..

قلت بجراة : ليس الغرور ايها النبى هو مشكلتى .. اريد أن يعلم الناس أن هدهدا متواضعا بسيطا كان سببا سخره الله تعالى لاسلام امة كاملة .. هـذا حقى أيها النبى .. هو حقى ومجدى فى نفس الوقت .

تبسم سليمان ومد يده وربت على راسى ودعا الله أن يعطر ذكرى على امتداد الزمن الى يوم القيامة ..

انتهى سليمان من دعائه لى ..

انحنيت على يده التى تربت على راسى وقبلتها ..

صرفنى باشارة من يده .. قلت وانا اتهيأ للانصراف .

ـ اعرف أن الله يستجيب دعاءك ايها النبى العظيم .. لكننى افكر دهشا كيف يمتد ذكرى على التاريخ حتى يوم القيامة .. اى كتاب هذا الذى يعيش الى يوم القيامة ..

قال سليمان : مثلك انا يا مارهالا لا اعرف الغيب .. سألتنى ان أدعو الله لك فدعوت ..

صدقنى .. لست اعرف كيف يحقق الله دعوتى ..

مثلك تماما تنتابنى الدهشة من هذا الكتاب الذى يعيش الى يوم القيامة ..

اى نبى يكون صاحبه ..

لست اعرف يا مارهالا .. هـذا كله غيب لا تدريه ولا أدريه مثلك ..



دابة الأرض



أحكى لكم ما حدث .

كنا نسـمع ونحن مجرد نمل نعيش فى منازلنا . أنباء متفرقة عن علاقات الجن بالناس ، وكنا ندرك ، رغم عقول النمل الصغيرة ، أن هـذه العلاقات كانت سلاحا للجن ، لقد سخر الله الجن لسليمان ، سخرهم له كجند من جنوده ، وخدم فى مملكته ، انهم يغوصون فى أعماق البحـار ، ويعملون له ما شـاء من القدور والقصور والبيوت فى أيام ، ويعبدون الطرق فى ساعات وتم هذا التسخير فى عصر سليمان وحده ضـد قانون قديم يقضى بانفصال طائفة الجن عن طائفة الناس .

وكان هذا التسخير معجزة لسليمان .. وآية من آيات ملكه . وشاهـد الناس ما يفعله الجن من أمور خارقة يعجز عنها الآدميون . وكان المفروض أن يزداد النـاس ايمانا بالله ، وأن يزدادوا ادراكا لقـدرته سـبحانه ، ولكن الذى حدث هو انتشـار الخرافة واستعلاء الوهم ، ازداد الناس اعتقادا فى قدرة الجن .. حتى لقد قال الجهلاء ان الجن يعلمون الغيب ..

لست أعرف ـ كنملة فى حالهـا ـ من الذى إطلق هـذه الشائعة المضحكة ؟. ان أحـدا لا يعلم الغيب سوى الله .. لا الجن ولا الانس ولا الأنبياء ولا الأولياء ولا الملائكة ..

ان الله هو الخالق ، وما عداه ابتداء من الملائكة وانتهاء بالنمل .. مخلوقات .. فيها الجليل كالملائكة ، وفيها العظيم كالانسان ، .. وفيها البسيط كالنمل .. والغيب هو ارادة الله تعالى كما تنفذ فى الأشياء . ولا يعلم هذه الارادة غيره . وأى انسان أو نملة .. سواء كان ملكا على الناس أو ملكة على النمل .. لا يعلم الغيب .. قولوا لى : من الذى يستطيع ان يقول لنا .. ماذا سيحدث غدا ؟

اعتذر عن بدء المقدمة البديهية ، اعتذر لبداهتها ، ولكنى مضطرة اضطرارا لبدء حديثى بها .. قلت ان اشاعة مؤداها ان الجن يعرفون الغيب قد انتشرت .. لست أعرف هل نشرها عفريت من الجن أو انسان من الناس .. المهم انها انتشرت الى الحد الذى صارت فيه قضية شبه مسلمة . وكنت أعرف — كنملة — أن الجن لا يعرف الغيب . غير انه قدر لى يوما أن أكون .. أنا النملة البسيطة الضعيفة المتواضعة التى تطيرنى اقل نفخة من فم الانسان .. قدر لى يوما ان أكون دليل الاثبات الوحيد فى قضية عدم معرفة الجن للغيب .

استطعت أن أثبت هذه الحقيقة .

المدهش .. اننى فعلت ذلك دون ان أدرى .. ودون ان اقصد .. كنت جائعة فلم أدر ماذا افعل . واكلت العصا .

عصا سليمان ..

اريد أن اعود الى الوراء قليلا ليمكن ان نفهم .. بدأت معرفتى بسليمان من الأخبار التى كنا نسمعها عنه ..

كان سليمان أشهر واحد على الأرض فى عصره .

كان غنيا الى الحد الذى كان يصنع فيه جدران معبده وسقفه من الأخشاب الثمينة المغطاة بصفائح الذهب .. وكنا نحلم ..

كنمل يأكل الخشب .. بأن ندعى يوما لهذه الوليمة . غير ان وقوف الذهب فى طريقنا الى الخشب كان أمرا منغصا للغاية .. لا أمل فى هذه الوجبة اذن .. هى وجبة مستحيلة .

كانت هذه المعلومة هى أكثر المعلومات التى نعرفها عن سليمان كانت تتصل بحياتنا اتصالا وثيقا . كان سليمان حلما بالنسبة الينا . حلما مستحيلا .

قلت اننى نملة من هواة الخشب . يسمى الناس جنسنا بالنمل الأبيض ، تمييزا له عن النمل العادى الذى لا يأكل الخشب .. والحقيقة أننا لسنا نملا أبيض .. هذه تسمية شائعة وخاطئة .. نحن من رتبة أرقى من النمل قليلا .. اسمى ذابة الأرض .. لوننا باهت ، وطريقتنا فى الحياة عجيبة .. أحيانا نحفر الأرض ونبنى داخلها مساكن تتسع لستمائة ألف نملة ، ورغم أننا نعيش تحت الأرض ، الا أننا تقوم بعمل نظام رائع للتهوية .. واحيانا نبنى عشرين نفقا متوازيا تحت الأرض . كل نفق منها يقع تحت الآخر مباشرة ، ونقوم بتثبيت ذرات التراب والرمل بلعابنا فتصبح لهذه الحواجز صلابة الأسمنت الآدمى .. وملك النمل الأبيض يعيش طويلا .. والملكة هى المسئولة عن وضع البيض .. وتضع الملكة فى حياتها الطويلة نحو عشرة ملايين بيضة ، ثم يفقس هذا البيض الى عساكر وشغالات ، ذكورا واناثا . وعساكر النمل الأبيض أكبر حجما من الشغالة ورؤوسها كبيرة صلبة .. وعندما نهاجم — نحن النمل الأبيض — مدينة من مدن النمل الأخرى ، تتصدر العساكر مقدمة الجيش .. وتقف الصاعقة قبل مقدمة الجيش ، وعساكر الصاعقة من النمل لها أنف طويل يشبه المنقار ، وحين يهاجمها النمل العادى تفرز العساكر ذات المنقار سائلا لزجا يلتصق بعنق عسكرى النمل العدو كالصمغ .. وبهذه الطريقة نشل إعداءنا ونكسب .. ونحن نتغذى أساسا على الخشب .. فى معدتنا أنواع من البكتريا التى تمكننا من هضم الخشب ، وتجعله بالنسبة الينا

مثل اشهى الأطعمة بالنسبة للآدميين ، وللنمل الأبيض هجرات خاصة .. تخرج تجمعاتنا مرة واحدة فى العمر ، عندما تطير سحب كبيرة منها فيها ذكور واناث بحثا عن بيوت جديدة .. وتفترس الطيور والحيوانات معظمنا ، أو نموت لأسباب أخرى .. ثم ينجو من هذه المجموعة الطائرة ذكر وانثى يبدآن على الفور فى حفر بيت جديد ، بعد أن يتخلصا من أجنحتهما التى لا فائدة منها الآن ، ثم يتزوجان فى مسكنهما تحت التربة ، ويسرعان فى انشاء مستعمرة اخرى جديدة .. وهكذا يكفى اثنان منا لصنع جيل جديد ..

كنت اطير .. مع آلاف من جنسى ، حين وقعت فجأة .. انخلع احد أجنحتى اثناء الطيران فهويت .. أين تظنوننى هويت ؟ .. فى محراب سليمان الذى يتعبد فيه .. لم أكد أسقط حتى تخلصت من جناحى الثانى ، وبدات أستكشف المكان .. كنت احس ببعض الدوران من اثر السقوط .. غير اننى .. اعترافا بالحق .. اصبت بدوار اعظم وأنا أجوس خلال المحراب .. ان عظمة المحراب كانت فوق قدرة العقل النملى على التخيل .. الأرض من الرخام المغطى بالسجاجيد .. الجدران من الكريستال الشفاف .. ليس هناك سقف .. كرسى سليمان من الذهب .. سليمان يجلس على كرسيه وقد أسند ذقنه الى عصا يمسكها فى يده .. لا أحد يجرؤ على اقتحام المحراب وسليمان يتعبد .. اى شىء فى الدنيا يستطيع أن ينتظر سليمان حتى ينتهى من صلاته .. وحول المحراب يسرع الجن وهم يتأملون سليمان جالسا ، ليؤدوا سخرتهم وأعمالهم ، أدركت أننى وقعت فى شر أعمالى .. كنت المخلوق الوحيد الذى جرؤ على اقتحام محراب سليمان .. ماذا لو رفع وجهه فرآنى ؟.. قلت لنفسى ألقى عليه السلام حتى لا يفاجأ بوجودى .. همست :

ــ السلام على النبى الملك سليمان الحكيم .. انا يا سيدى

نملة وقعت هنا خطأ .. أرجو معذرتك .. لو قلت لى أين الباب فسوف أخرج .

لم يرد الملك سليمان .

رفعت صوتى أكثر .. وظل سليمان صامتا .

اقتربت منه اكثر .. رفعت راسي وتأملت وجهه المهيب الجميل العظيم ..

كانت عيناه مفتوحتين تحدقان فى جزء من الأرض أمامه .. لم يكن يطرف .

قلت لنفسى لعله مستغرق فى صلاته ، وقفت ساكنة ، ومر الوقت وهو لا يتحرك .. تقدمت منه اكثر .. قلت بصوت ضعيف :

ـ سيدى سليمان الملك .. انا جائعة وقد جاء ميعاد غذائى وليس فى الحجرة كلها اى قطعة من الخشب غير العصا التى تستند اليها .. ماذا أفعل ؟

لم يرد سليمان .. تقدمت منه أكثر .. أعدت على سمعه التماسا جديدا ، أفهمته فيه أننى جائعة ، وان العصا التى يستند اليها هى طعامى الوحيد .

ظل سليمان صامتا .. وانقضى الليل .. وجاء الصباح .. وسليمان لا يتحرك .. ادركت بالهام مفاجىء انه ميت .. ان بياض شفتيه النبيلتين ، وشحوب وجهه الكريم ، وصمته الساكن المروع .. تعنى أنه ميت .. صليت صلاة طويلة على روحه الطاهرة، وتقدمت من العصا .. هى رزق ساقه الى من يرزق الدود فى الحجارة ..

بدات التهم العصا .. آه .. هى من شجر الخروب .. يذكرنى الخروب بالخراب .. مات صاحب العصا وسيدرك بيته الخراب ..

ـ عليك الصلاة والسلام أيها النبى الكريم .. طبت حيا وميتا .. ميت أنت ولكنك تطعمنى عصاك فما أنبلك .

عاودت الأكل .. أكلت جزءا منها فى أيام .. اختل توازن الجسد العظيم فجأة وخر سليمان الى الأرض .. لم أكن أقصد ذلك .

لم يكد سليمان يقع على الارض حتى احسست أن جسدى كله يتزلزل ..

كان الجن يمر على المحراب فشاهد سليمان راقدا على الأرض .. نشر الجن النبأ ..

دخل المحراب رجال سليمان فألفوه ميتا ..

توقف الجن حين علم نبأ موت سليمان ، إدرك الجن أنه تحرر من تسخير سليمان له .. اكتشف الناس أن سليمان ميت منذ زمن ..

طوال هذا الزمن كان الجن يعمل دون أن يعرف بموت سليمان .. كان موته غيبا فلم يعرف به الجن ..

« فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » .

كشفت أنا النملة الصغيرة ما كشفت ، وأسقطت دعوى معرفة الجن للغيب .. اسقطتها حين أسقطت العصا .. ورغم أن فمى لا يكاد يرى .. فقد أسدلت به الستار على ملك سليمان العريض.

وهو ملك شاركت فيه أعظم المخلوقات واكبرها وأعتاها ، واسدلت عليه الستار اصغر المخلوقات وابسطها وادناها .. فسبحان من يمنح ويمنع ، ويؤتى الملك وينزع الملك . وسبحان من جعل لكل شيء بداية ، وجعل لكل شيء نهاية .. سبحانه وتعالى على البداية والنهاية .

حمار العزيز



يشيع فى حياة النوع المسمى بالانسان تصور شائع مؤداه أن الحمير لا تقرا ولا تكتب ، وليس هذا صحيحا على اطلاقه .. هناك حمير تقرا وتكتب .

نحن نقرا آثار الرائحة فى الأرض ، ونقرا من هبات الهواء احتمالات التغيير المنتظر فى الطقس ، صحيح أننا لا نكتب الا فى إحوال نادرة . عندما يكون هناك اعتراف أو شكوى أو شيء خطير نريد قوله .

إعرف إن الناس قد كونوا رايا سيئا فى الحمير .. واحب أن أقول ان للحمير رأيها المماثل فى الناس . لا أريد ان أشرد .. يحدث لنا معشر الحمير أن نشرد أثناء السير ..

يتشتت النظر فى الجانبين بدلا من اتجاهه الى الأمام ، ولهذا يضع الناس لنا حواجز معتمة على جانبى عيوننا لوضوح الرؤية وتحديدها .. لو كان هذا ممكنا فى الكتابة لصار للحمير فى دنيا التأليف شأن ..

نسيت اى منعطف كنت إقف عنده فى الكلام ..
تذكرت الآن .. كنت اتحدث عن جنس الحمير ..
ينحدر جنس الحمير الصابر الذى انتمى اليه

من حمار وحشى عظيم عاش فى الايام القـــديمة الطيبـــة فى غابات الصـــومال ، ثم أنشب الصراع أظافره بين هـــذا الجد الوحشى والأسد . كان الأسد اللعين لا يستطعم غير لحم جدنا الراحل .. وكان كل هم هذا الجد أن يتناسل .. ولم ينفعه ذلك واســتمر عدده يتناقص .. اخيرا اهتدى جدنا الأكبر الى طريقة ينجو بها من الأسد . ترك الانسان يستأنس اخيب من فى ذريتــه ، على أن يحمل الانسان هم حماية هذه الذرية من الأسد ، وفى مقابل ذلك ، يقوم الحمار بخدمة الانسان وحمله وحمل اثقاله وجر متاعه . كان يوما أسود . انقمست فيه سلالة الحمير الى قسمين : ســـلالة وحشية بقيت كما هى ، وسلالة مستأنسة جديدة هى نحن . وقد اختلفت سلالتنا عن الحمير الوحشية القديمة اختلافا واضـــحا . ان الذل يغير من شكل المخلوق الخارجى ويغير تشريحه الداخلى . طالت آذاننا وكبر راسنا وفقدت اسناننا حـــدتها وقوى ظهرنا واتسع بطننا ، وصارت لنا معدة جبارة يحتاج ملؤها لاحتمال ذل كثير يقع على الراس .

تم هذا التحول الخطير فى حياة الحمير منذ ١٢ الف ســنة ، اى فى العصر الحجرى الجديد كما يقول علماء الانسان ، ويبــدو لى أن الله اراد تكريم الانسان وخدمته فعهد لجنسنا الصـــابر بهذه المهمة ..

ان احدا فى الكون كله لم يستفد من الحمار كما اســـتفاد الانسان ، ورغم ذلك فلا حمد ولا شكر ولا اعتراف .

مشكلة الانسان الأساسية ــ من وجهة نظرنا المحايدة ــ انه يقيس كل شىء فى الدنيا الى نفسه ومصالحه ، يعتبر الانسان نفسه مركز الكون واهم واحد فيه ،وهو يثبت لنفسه هـــذه السيادة بشكل تلقائى بمجرد الميلاد .. وليس هذا ما اتفقنا عليه .

ان الميثاق الذى تم بموجبه تسخيرنا لخدمة ابن آدم كان ينطوى على شرط يحدد الانسان الذى هو سيد الكون وخليفة الله فى ارضه .. وكان الشرط واضحا وصريحا فى تأكيده ان الانسان مخلوق راق يعرف الله ويعبده . ويقوم بتعمير الأرض وتغييرها . ويحسن الى المخلوقات التى سخرها الله له كى تخدمه وتشقى من أجله .

وقد سقط هذا الشرط القديم واكتشف جنس الحمير أن للانسان تصرفات اسوأ من تصرفات الأسد . كان الأسد يأكلنا بغير التواء ، اما الانسان فيأكل حقنا وعملنا بطريقة ملتوية أشد الالتواء . وهو يرى نفسه متفضلا علينا رغم أنه مدين لنا ، وهو يتصور نفسه أرقى منا بانسانية لا نراه يملك منها الا اسمها .

ورغم هذا كله فنحن نصبر .

لا اريد أن أدلف من أرض الرضا لأرض المرارة ، حمار أنا بالرضا ، ولو عرفت المرارة أو الغضب لصرت أسدا او نسرا أو وحشا ، ونحن لا نحب التغيير . كل الحمير تنفر من التغيير . ذلك طبع فينا وفطرة وجبلة .

لم اقدم نفسى الى القارىء .. انا حمار أبيض يميل جسده الى الحمرة أعيش فى مدينة ريفية فى فلسطين ، سيدى وصاحبى رجل أشيب طيب اسمه عزير ، يقرأ معظم الناس اسمه على أنه عزيز ثم يقولون ان الحمير اغبياء وبلداء . لن أتوقف للمناقشة . ماض أنا فى طريقى وذيلى يهتز .

لماذا اريد أن أكتب مذكراتى ، رغم معرفتى أن الحمير جنس يتحلى بفضيلة التواضع وانكار الذات ..

هاء .. هذا سؤال هام ..

أريد أن أؤكد للقارىء ـ سواء كان حمارا أم انسانا ـ أننى لا أكتب هــذه الأوراق للمباهاة او التعاظم او الفخر ، لا أريد أن اثبت لنفسى قيمة اكثر من بقية الحمير . كل ما فى الأمر ان تجربة غريبة وقعت لى . تجربة مثيرة ومذهلة .

وهى تجربة لو وقعت لغيرى وحكاها لى لما صدقتها . مشكلتى أن هذه التجربة وقعت لى شخصيا . عاينتها بنفسى ، ولســوف أحكيها كما وقعت تماما .

تصــوروا اننى توفيت ، وصمت تنهيقى وكف عن اللعلعة . وبليت عظامى واستحالت الى التراب ، ثم عـدت مرة ثانيـة الى الحياة والتنهيق .

يدور راسى وتتقلقل عظام الجمجمة حين أذكر ما حدث .

ماذا لو بدأنا القصة من بدايتها .

لا احب الأســلوب الجديد فى رواية القصص من نهايتهــا واستخدام طريقة الفلاش باك .

ولدت ذات يوم .

وكل الحمير تولد ذات يوم . ليس هناك جـديد فى الأمر . الجديد أننى سألت عن ابى فنظرت إمى نظرة حائرة الى عشرات الحمير الذين يقفون امام مرابطهم وقالت باحتقار : كان أبوك القديم وحشا عظيما يصارع الأسد .

وانشأت امى تحكى لى قصة طويلة عن امجاد ابى القديم أيام كان يعيش فى غابات الخــوف التى تثير فى المخلوق أنفس ما فى طبيعته من خصــائص . بعد نهاية القصــة .. وجــدت إمى لم تجب على ســؤالى .. وعرفت حين كبرت أول حقيقة فى دنيا الحمير .

هناك أم وليس هناك أب .

لا تعـرف الأم من هو الأب من فرط الانشـــغال والتعدد . ولا يعرف الطفــل من هو الأب . لأن الحمــار الذكر لا يربى أبناءه ولا يعنى بهم ولا يلتفت اليهم . آلمتنى هــذه الحقيقة فى طفولتى .. غير أن ما تصورته فوضى قاسية يومئذ قد انكشف لى فيما بعد عن حكمة عظيمة .

ان الحمار يتعرض كنوع صابر صامت لعذاب يؤدى لتقصير عمره على الأرض ، ومن المهم فى دنيانا أن يزيد النوع ويكثر النسل، ولهذا السبب يشتغل الحمار دائما بالرغبة نحو الجنس الآخـر . وليس هناك حمار يعتقد أن هناك أنثى تخلو من الجمال أو السحر .. ونحن لا نعرف كجنس تحريم الأقارب المحرمة . أيضا نجهل اقتصار الذكر على أنثى واحدة ..

وغنى عن الذكر أن انطلاق الحواس بغير رادع هو خاصــــة مميزة من خصائص الحمير .. وأحيانا نجد هذه الصفة فى الناس .. وأقول فى نفسى عندما أرى أحــــدا من الناس مثلنا لا يعرف الحياء .

ــ ها هو حمار أصيل يتخفى وراء قناع الجلد الآدمى .

وأحس نحو هذا الزميل بتعاطف وود . انه يستمتع بحريتــه فى ممارسة الحب مثلنا . وهو مثلنا لا يفكر الا فى شيئين : الطعام والاناث .

وأحيانا أقول لنفسى : ماذا تظن .. ربما كان هــذا المخلوق حمارا ثم تطور . لعله الصورة المتطورة من الحمار . من يدرى ؟
كنت أحب أن أتحدث عن طفولتى مثل الكتاب الآدميين .

يؤسفنى أننى لا أذكر طفولتى . كل ما إذكره منها هذه القصة الخيالية عن جدنا القديم الذى عاش فى الغابات . وفيما عدا ذلك أرى طفولتى غارقة تماما فى الظلام . بالنسبة الينا معشر الحمير لا نفكر فيما مضى . ولا نشغل البال بما لم يقع بعد . ذهننا مغموس

تماما فى اللحظة الحاضرة . لا نرى ما قبلها ولا نعى ما بعدها . كل ما أعرفه عن طفولتنا أن تسميتنا فيها تختلف عن تسميتنا فى الكبر . يقال عن الحمار الطفل انه جحش . والجحش حمار صغير . حمار سعيد . حمار لم يمزق بعد قناع الوهم عن الحقيقة . يعيش الجحش وسط وهم سابغ بأن الدنيا هى أمه التى ترضعه ويسير وراء ذيلها سعيدا .

ثم يكبر الجحش ويكف عن الرضاعة ، ويخرج الى الحياة .

ان صدمة هائلة تنتظره عند منعطف الطريق القادم . تسقط أمه من ذاكرته . لم يعد يعرفها ان رآها . لن يعود الى التمسح فيها . صارت بالنسبة اليه مخلوقة غريبة لا يميزها شىء عن الأخريات . وكلما ازداد استواء الحمار اكتملت له مميزات شخصية ، وهى النظرة الى الحب على الشيوع . والنظرة الى الطعام على الشيوع . وهذه القدرة على أداء أشق الأعمال واقساها .

وصل سيدى وصاحبى عزير .. شممت رائحته حين دخل البيت .. رفعت رأسى ونهقت سرورا بوصوله .

انا احب هذا الرجل بصدق .. وهو رجل طيب لم يضربنى يوما بالعصا ولا بيده .. يطعمنى افضل الفول ويأكل هو أسوأه .. يرحمنى ويريحنى ويقسو على نفسه . اعيش معه منذ عامين .. بعد عام ونصف عام اكتشفت أن الرجل نبى من انبياء الله ، اعتذر لاكتشافى هذه الحقيقة متأخرا ولكننى فى نهاية الأمر حمار ولا أريد أن أدعى ما ليس لى من الفضل .. وقبل أن التحق بخدمة هذا السيد الكريم والنبى الطيب .. كنت اشتغل عند تاجر غنى .. أو لص بخيل ان شئت الدقة .

اقسم بمخازن الفول الذى جففته الشمس ، كما اقسم بحقول البرسيم الشتائى الأخضر أن سيدى السابق كان لصا بخيلا .

حين اشترانى راح يربت على راسى وظهرى فتصورت إنه طيب واحببته ، ولم تكد تصل الى بيته حتى تشاءمت ..

كان الرجل يكسب فى اليوم الواحد ثروة تكفى لشراء حقل من الفول . وكان يعيش على بيضة كل اسبوع .. يأكل ١/٧ بيضة كل يوم . ومعها كسرة من الخبز الجاف ثم ينهال على زوجته ضربا لأنها أكلت بيضة كاملة ، كان يعيش فى بيت بدائى صنعه من جذوع الأشجار ، وكانت حيطان البيت الهشة لا تقاوم برد الشتاء المروع . وحين وضع أمامى الطعام نهقت تنهيقة قلت فيها : بطنى كبير والعلف قليل وهذا للعلم .

نظر الى نظرة قاسية وانهال على ظهرى ضربا .. وفهمت أنه ادرك معنى التنهيقة . بعدها اعتدت التحفظ فى التنهيق أمامه .

وبدأت أيامى السوداء فى خدمته .

اكتشفت أنه اشترانى لبناء بيت حجرى . كان الرجال يكسرون له حجارة الجبل فأحملها على ظهرى حتى مكان البناء . ومرت الأيام وتسلخ ظهرى وانكسر وسطى من ثقل الحمل ، ولم يكن يقدم الى الا أردأ أنواع الطعام ، وكنت اذا لقيت حمارة بيضاء فى الطريق فشممت الأرض ورفعت راسى عاليا وثنيت شفتى العليا وألصقتها بأنفى وصفقت بأسنانى وزعقت عليها بنداء الحب .. كان يضربنى ولا يدعنى أمارس هوايتى المفضلة . ويقول تبريرا لذلك انه يريد أن يحتفظ بقوتى لانهاء اعماله .. اذا كنت أنا أحتفظ بقوتى لمثل هذا الموقف أنظر الى الأنانية . كرهته يوما كراهيتى للذئب وأكثر .

صبرت على العمل ، وصبرت على الجوع ، واحتملت عذاب الضرب والتجويع ، وسجنت نفسى فى طبيعتى المسالمة التى لا تعرف غير الاحتمال ، فلما تعرضت حريتى فى ممارسة الجنس للتهديد ، رأيتنى أفكر بعمق .

هذه هى الحالة الوحيدة التى تفكر فيها الحمير بعمق .

نظرت حولى فى حياة الناس والحمير نظرة متأنية فاحصة فماذا رأيت . رأيت الجزاء لا يوزع على قدر الجهد المبذول . وانما يوزع على قدر قدرتك على النفاق . ورأيت أخس النفوس تجلس على عروش الكبرياء والثراء والاحترام ، ورأيت أن الخطيئة التى تستطيع دفع الثمن على الأرض تواصل مسيرتها التاريخية آمنة مطمئنة ، ورأيت اللصوص تسرق طعام اليتامى فيقدم اليتامى والأبرياء الى السجن ، ورأيت الانسان تزيد قيمته فى الحياة كلما زاد ما يأخذه منها ، لا كلما زاد ما يعطيه لها . ورأيت الانسان يظلم أخاه الانسان ويستحل لنفسه ما يحرمه على غيره ، ورأيت حمارة بيضاء فنهقت أناديها فسقطت الضربات على ظهرى ، وحيل بينى وبينها .

وذلك فوق قدرة الطاقة . احتملت ما فيه الكفاية .

طفح الكيل وفاض وانسكب مثلما تنسكب المياه من جردل قديم .

وحز هذا الموقف فى قلبى مثلما تحز الانهار لنفسها مجاريها فى الأرض الصلبة . قلت فى تنهيقة أليمة : العلف قليل والبطن كبير والحر شديد وظهرى متسلخ وأنا وحيد وهذا للعلم .. تقول الحمير دائما فى نهاية تنهيقها : وهذا للعلم ،اتباعا لروتين قديم تمضى عليه الحمير جميعا .. وليس كالحمير جنس يحافظ على الروتين ويهواه ..

انتهت تنهيقتى فقررت أن أغير أسلوبى تماما فى الحياة .. هل أصير حصانا يختال ظهره تحت عجيزة سلطان جائر أو ملك ظالم ، هو انحدار يلبس ثوب الرقى ، وثمة استحالة أن أصير حصانا . ثم أن الحمير تنفر من التغيير ، لم يبق هناك مفر من العناد .

قررت أن أحرن .

حاول سيدى الظالم أن يحملنى اثقاله فحملتها فلما دفعنى بعصاه لأمشى رفضت أن أسير ، انهال الضرب على ظهرى ووجهى فازددت صبرا وثباتا ورفضت الحركة .

وذهب بى الى شيخ يدعى معرفته بطب الحمير وسأله :

ـ هل الحمار مريض ؟

جس الرجل بطنى بعصاه ، وفتح فمى ونظر فى اسنانى وقال :

ـ الحمار كالجن ولكنه بليد .

رسمت على وجهى تعبيرا من البلادة .

واشتد الضرب وازداد عنفا ، فاشتد اصرارى على عدم الانتقال من مكانى خطوة . ثم نهقت قائلا : هى علقة تفوت ولا احد يموت وهذا للعلم .. ثم أوجعنى الضرب يوما وكان يصـــدر من ورائى فرفعت قدمى ومددتها فى اتجاه الضارب . هى رفسة واحـــدة تندرج تحت حالة الدفاع الشرعى عن النفس .

اصابت الرفسة يد الظالم فصرخ متألما وارغى وازبد وقال :

ـ يعاندنى الحمار ويضربنى فسوف اقتله . أحضروا الفأس والسكين .

لم تتحرك فى جسدى شمرة .

أعرف انه بخيل ولن ينفذ تهديده . ربما فكر فى بيعى .

اثمرت سياسة العناد وقرر الرجل بيعى فى اول سوق ينعقد للحمير .

سحبنى الى السوق وراح ينادى .

حمار نشيط وشقى وقدرته على العمـل لا تكل .. انظروا اليه ..

سأل أحد التجار ـ بكم تبيعه .

قال ـ عشر قطع فضية .

تحرك التاجر بى قليلا فتماوت وتباطأت ، فتح التاجر فمى وقال : أسـنانه سليمة وشابة .. فما سر بلادته .. قطعتان فضيتان .. صرخ صاحبى كمن طعنه أحد بسكين ، وانهال ضربا على وهو يؤكد اننى حمار يساوى ثقله ذهبا . عاد يحاول حثى على الجرى فرفضت . ادعيت الكسل وتباطأت . كنت أعرف أننى أغامر باحتمال أن ابقى مع صاحبى ولا أباع ، ورغم ذلك قررت التمادى ، كنت أريد أن أباع بأبخس الأثمان نكاية فى صاحبى البخيل ، وقد حدث ما توقعته .. باعنى بعد أن يئس منى وقبض قطعتين ونصفا وانصرف يشيعنى بنظرات الحقد . لم يكد التاجر الجديد يعتلى ظهرى حتى طرت به فى الطريق . ووقف صاحبى القديم يرمقنى وقد اغرورقت عيناه بدموع الغيظ .

لم نكد نغيب عن ناظره حتى تباطأت ، ما الذى إخـذناه من النشاط والعمل والسرعة . لا شىء .. نكسل اذن .

وصلنا الى بيت التاجر فاكتشفت إنه يقتنى عددا هائلا من الحمير .. ورايت أكثر من حمارة بيضاء ..

رفعت راسى ونهقت قائلا : أنا مسرور ... انا مسرور ... أليست هناك حمارة بيضاء فى هذه الناحية .. اننى أحس بالوحدة وهذا للعلم ..

ومرت ليلة رائعة .

وجاء الصباح .. واكتشفت اكتشافا زاد رأيى سـوءا فى الآدميين .

رأيت التاجر يقول لمساعده : افرز لى الحمير البليدة فى ناحية ..

وخرجت مع الحمير البليدة . أحضر التاجر قطعة من الخشب

واشعلها وراح يمر بها على سيقان الحمير الخلفية مرورا سريعا .. ربط الحمير فى مكانها وراح يعذبها بالحرق .. لم افهم سر هـــذه الطقوس الغامضة الا فى السوق .

حينما ذهبنا لعرضنا فى السوق .. كانت اقل عصـــا تمس ظهرنا من الخلف تلمس مكان الحرق . وهو مكان ملتهب .. تمسه العصا فيطير الواحد منا مثل اعظم حصان ، ويرتفع الســعر غشا وتدليسا .. ثم لا يكاد الجرح يبرا حتى يعود الواحـــد منا الى بلادته ..

كان حظى افضل الحظوظ ..

اشترانى عجوز اشيب هو عزير . قال للتاجر :

ـ أريد حمارا بطيئا وذكيا يحملنى الى النـــاس ويعيننى فى الأرض ورزقه ورزقى على الله .. اشار التاجر الى وهو يقول :

ـ اشتريناه امس بعشر قطع ذهبية ، ونبيعه بســبع قطع اكراما لخاطرك .

دفع عزير ما طلبه الرجل دون مساومة .

ادهشنى كرمه .

عدت معه الى بيته . اكتشفت حين اعتلى ظهرى أنه رجـل طيب . لم يكن يحمل معه عصا . ولم يكن ينخسنى فى بطنى . كان مثل نسيم عليل يمر فوق ظهرى . واحببته . رايته يعظ الناس وهو فى طريق عودته ويوصيهم باتباع الوصايا العشر .. كانت هذه المرة الأولى التى اسمع فيها عن الوصايا العشر ، لم اشــغل نفسى بما سمعته .

عشت مع عزير . كان متزوجا عنده ثلاثة أولاد .. وكانت لديه خادمة صغيرة تتفانى فى خدمته وخدمتى . كان اسم الخادمة

« هانم » وكانت عادة تكرمنى بالعلف وتتوصى بى . وكنت اعرفها من صوتها .

صارت لى فى بيت عزير حجرة خاصـــة فيها شباك بحرى نغلقه فى الشتاء بسبب السم الذى ينفذ منه كالسلهوب ، فاذا جاء الصيف فتحنا الشباك فجاءت منه طراوة ترد الروح .

اعترف اننى استمتعت تماما بحياتى مع عزير .

مضت حياتى هادئة رتيبة ، كنت آكل جيدا وامارس حريتى فى الحب ، وزاد وزنى وامتلأت ، وفصل لى عزير بردعتين جديدتين فنهقت حين رايتهما قائلا : جاءتنى بردعتان جديدتان وأنا مسرور وهذا للعلم .

لم اكن اشقى كثيرا مع الرجل . ان مشاويره صغيرة ومحتملة، يمر فى القرية ويحـــدث الناس عن الله ، ويدعوهم الى طاعته ، وينهاهم عن عبادة الشيطان ويوصيهم باتباع الوصايا العشر . ورغم اننى سمعت اسم النبى الذى انزلت عليه الوصايا العشر الا أننى نسيته الآن . ذهنى احيانا يشرد بغير سبب مفهوم . واعترف أننى واجهت أمرين لم أفهمهما أبدا فى سيدى عزير ، حديثه الدائم عن يوم القيامة . وقيامه بدعوته للناس بغير أجر . لاحظت أنه يتحدث كثيرا عن يوم يقوم فيه الأموات من الموت . ولم أفهم كيف يمكن لمثل هذا الأمر ان يحدث .

لاحظت أيضا انه يعمل طوال نهاره وليله مجانا ، يدعو الناس بلا اجر .. وتساءلت فى نفسى من أين يطعم أسرته ويطعمنى ، ثم اكتشفت أن له حديقة بعيدة يمر الطريق اليها بالمقابر .. من هذه الحـــديقة كان عزير يعيش . وكنت أعرف أنه ينوى الذهاب الى حديقته اذا صحب سلتين كبيرتين ووضعهما على ظهرى .

دخل سيدى عزيز وهو يحمل السلتين .. وادركت اننا سنقوم برحلتنا الأسبوعية ..

. . . . . .

بدأت رحلتنا الى الحديقة ..

سرت نشيطا راضيا أستنشق الهواء النقى .. بعد طريق مترب دخلنا فى طريق أخضر تحفه الحقول من الجانبين .. ثم تغير لون الطريق الى اللون الاصفر الباهت .. هذا أسخف جزء فى الطريق .. نحن الآن فى منطقة جرداء قاحلة . خرجنا من القرية تماما وهدأت الأصوات وبدأت أسير على مهل .. شارفنا مدينة الموتى . .احسست بتشاؤم ونحن نمر على الخرائب القديمة ..

أسرعت فى السير حين مررنا على المقابر .. ضحك سيدى عزير حين رآنى أحاول اجتيازها بأقصى سرعة ممكنة ، يعرف أننى اخاف منها .. مد يده وراح يهدئنى حتى ابتعدنا عنها .. لا يعرف سيدى عزير ما أراه أحيانا جوار المقابر .. الحجاب مكشوف عنا نحن البهائم ونحن عادة نرى مالا يراه الناس .. وقد رايت الى جوار المقابر أشياء لا أستطيع الحديث عنها .

بعد مسيرة طيبة وصلنا الى الحديقة ..

كان جسدى كله يتصبب من العرق والارهاق .. جريت الى الظل واخترت مكانا متربا والقيت نفسى على الأرض ورحت أتمرغ ..

لم أكد انتهى من التمرغ حتى عاودتنى قوتى ونهضت نشطا كأننى أنهض من نوم طويل .. رأيت سيدى يملأ احدى السلال بالعنب ويملأ الأخرى بالتين ..

عرفت ان موعد انصرافنا قد حان فملأت بطنى من العشب الطرى الظليل . دناوة سأدفع ثمنها فيما بعد ..

. . . .

وضـــع سـيدى عزير على ظهرى ســـلة التبن وسلة العنب وانصرفنا عائدين .

سرت نشيطا فى البداية ، ثم بدات اتنفس بصعوبة .. كانت الشمس حامية كأنها نزلت من السماء وركبت فوق راسى ، كان اثنان يركبان فوق ظهرى . سيدى عزيز والشمس .. وكان عزيز محتملا اما الشمس فكانت مخيفة .. لم أكد أسير خطوات حتى كان جسدى كله يسبح فى العرق ، وأنا أكره الأنهار والسـباحة بوجه عام . وقفت ونهضت قائلا :

ـ التراب ساخن والحر شديد وبطنى ملآن وأنا طهقان وهذا للعلم .

ربت سيدى على رقبتى فعدت أسـير . اقتربنا من المقـابر فرأيت ظلالها الخربة المخيفة تشبه حديقة لطيفة .. جريت نحو الظل ودخلت مدينة الموتى .. ابتسم سيدى وتركنى أذهب حيث اشاء . كنت أحس بحـرارة مخيفـة .. وهبط عزيز ورفع عـن كاهلى سلتى التين والعنب وجلس على الأرض .

كان كل شىء مفرهدا من الحر .. أنا وسيدى وهوام الخرائب ونمل المنطقة .

جلس عزير وعصر بعضـا من العنب فى صـحن .. ثم أخرج رغيفا من الخبز الناشف وكسره ووضعه فى العنب كى يلين فتحتمله أسنانه .. راقبته وهو يعد طعامه ودهشت .. ما أصـغر كميـة الطعام التى يأكلها الآدميون ، كان سيدى عزير هو الآخـر يبـدو مسـتغرقا فى تأملاته .. لاحظت أنه يجيـل بصره فيما حوله من خرائب وعظام بالية وصمت ميت .. ثم سمعته يقول مندهشا كأنما يؤكد لنفسه قدرة الله .. سمعته يقول ((**أنى يحيى هذه الله بعـد موتها**)) .

لم يكد عزير يقول كلمته حتى هاجمه مثلما هاجمنى نوم ثقيل

مفاجيء .. هذا النعاس الآمر الذى يصحب الحراره ويبدو فيه انك تستحيل من فرط التعب الى تراب ..

نمت نوما عميقا يختلف عن كل نوم نمته قبل ذلك .. وقد وقع هذا قبل ان الاحظ اننى نمت .. حاولت أن انهق لانبه سيدى أنه لو نام فسوف يفسد العنب المعصور من الحرارة . ولن يجد طعاما يأكله عندما يستيقظ .. لم استطع .. رحت فى النوم .

نمت نوما عميقا غريبا . اشهد أن هذا النوم كان غريبا حقا . العادة اننى أحلم عندما أنام نوما عاديا .. أحلم اننى أسير فى حقول الفول مثلا .. أو احلم اننى اقابل جدى الحمار الوحشى القديم .. او احلم أننى لم أزل جحشا ليست عليه مسئوليات واثقال .. كان هذا النوم لدهشتى يختلف عن أى نوم .. كان نوما يخلو من الأحلام تماما ..

ثم أحسست فجأة بوجوده .. لا اتحدث عن سيدى .. لم أكن ارى سيدى عزير أو أحس بوجوده . انما كنت أحس بوجود كائن آخر .. كائن ليس من أهل هذه الأرض . كائن من نور جليل .. سمعت هذا الكائن يسأل سيدى : كم لبثت نائما يا عزير .. لم أسمع جواب سيدى .. ولم أره .. سمعت هذا الكائن الجليل يقول بعد لحظة صمت قصيرة : **((بل لبثت مائة عام))** انظر الى حمارك الميت يا عزيز . أنظر كيف استحال جسده الى تراب .. تأمل ما بقى من تراب عظامه .. ثم انظر كيف يأمر الله الموتى أن يعودوا الى الحياة .. هو مجرد الامر وحده يا عزير . انظر كيف يبحث التراب عن التراب ويلتئم عظاما . انظر كيف تغطيه الدماء والعروق ، ثم تأمل الجلد كيف ينبت فوقه .. انظر الى الشعر كيف يكسو الجلد .. لم يزل حمارك ميتا فانظر اليه كيف يصحو من الموت .. انهض أيها الحمار الميت .

كان الأمر الاخير موجهـا الى . . وكنت أسـمع كلمات هـذا الكائن الجليل ، دون أن أراه أو أرى عزير . . لم أكد اسمع الامر الأخير حتى نهضت من نومى فجاة . . رفعت رأسى فوجدت الجو لطيفا وقد ذهبت الحرارة . . لم أر غير سيدى عزير . كان يقف أمامى مندهشا كاننى أصـحو من الموت . نهضـت واقفا ارتعش وجربت أن انهق فوجدتنى لم أنس النهيق .

قال عزير وهو يتأملنى ويرتعش ـ ((**أعلم أن الله على كل شيء قدير**)) . . طعام سيدى لم يزل على حاله سليما لم يفسـد . كيف متنا مائة عام تحول فيها جسدى الى التراب ورغمها بقى عصـير العنب على حاله لم يفسد . . هذا العصير يفسد فى سـاعات فى الحر .

رأيت عزيرا ينخرط فى صلاة عميقة ، مد يده الى طعامه فمنعه انفعاله أن يأكل أكثر من لقمة ، بعدها ركب ظهرى وساقنى عائدا الى القرية .

وتلقيت المفاجاة الاولى فى يومى الغريب .

لم تكن هناك قرية .

أقصد القرية التى تركناها قبل أن نذهب الى النوم فى المقابر تغير شـكل البيوت وتغيرت ملابس الناس وتغيرت برادع الحمير . . وتغير كل شيء . حاولت أن أتشمم الأرض بحثا عن رائحة بيت عزير فلم أجد رائحة . . وقفت فى مكانى خائفا . . بدات أدرك ما حدث . أدركت بعد أن صرنا فى قلب القرية اننى قـد توفيت وعدت الى الحياة . . وأخافنى هذا الموضوع خوفا شـديدا . . ولولا عزير وطمأنته لى لجننت . لم يكن خوفى بغير مبرر . . لاحظت أن هذا النوم الذى تمناه قد فصل بينى وبين جنس الحمير فصلا نهائيا . . لم تكن الحمير ترانى فتقترب منى بود كما هى العادة . انما كانت تنبش خوفا وتبتعد . . أعلن عزير أنه قد عاد فسخر منه

الناس . قالوا خرج عزير منذ مائة عام ولم يعد . مات عزير وتبع موتا . قال : انا عزير وقد بعثنى الله من الموت بعد مائة عام .. اين احفادى .. دلوه على احفاده فوجد عزير اصغر احفاده فى الستين من عمره .. كان عمر عزير خمسين سنه .. وجلس الجد وعمره خمسون سنة مع حفيده وهو فى الستين . ورفض الحفيد الشيخ أن يصدق أن هذا الشاب الصغير هو جده . لم يكن فى القرية كلها غير امرأة واحدة هى التى عاشت بعد خروج عزير من القرية .

« هانم » خادمتنا الصغيرة . تركناها فى العشرين من عمرها وها قد وصل عمرها الى المائة والعشرين . اقبلت الخادمة حين سمعت عن عزير وهى تجر جسدها المحطم وتتحسس بعصاها الطريق .. فقدت بصرها من الشيخوخة .. شممت رائحتها فأسرعت اليها ونهقت سرورا بها ورحت أهز ذيلى .

كانت هى الرائحة الوحيدة التى عرفتها فى القرية .

قالت المرأة لعزير : من الذى يتحدث عن عزير ويذكره وقد نسيه الناس . ثم انخرطت فى البكاء .. قالت وسط بكائها : كان عزير مستجاب الدعوة فادع الله لى أن ارى .. فدعا لها عزير أن ترى فذهب عنها العمى ورأته .. عرفته فصرخت ترحب به ثم ارتمت على قدميه تقبلهما وتبكى ..

وشاركتها البكاء . انعقدت عند عينى حبتان كبيرتان من الدموع .. قال احفاد عزير : كان عزير يملك نسخة من التوراة فى بيته . وقد بحثنا عنها بعد خروجه فلم نجدها . لو كنت عزير فأين هى التوراة .

لقد ضاعت أوراقها وتمزقت فى الحرب ونسيناها تماما .
قال عزير مشيرا الى رأسه وقلبه : لم ازل أحفظ التوراة

فى قلبى . وهناك نسخة اخفيتها فى جذع شجرة قديمة فتعالوا نبحث عنها . ذهبنا الى شجرة قديمة مهجورة تنمو حولها الاعشاب الطويلة .. وهناك مد عزير يده واخرج ما بقى من صفحات التوراة .. وتصاعدت صيحات الدهشة من الناس .

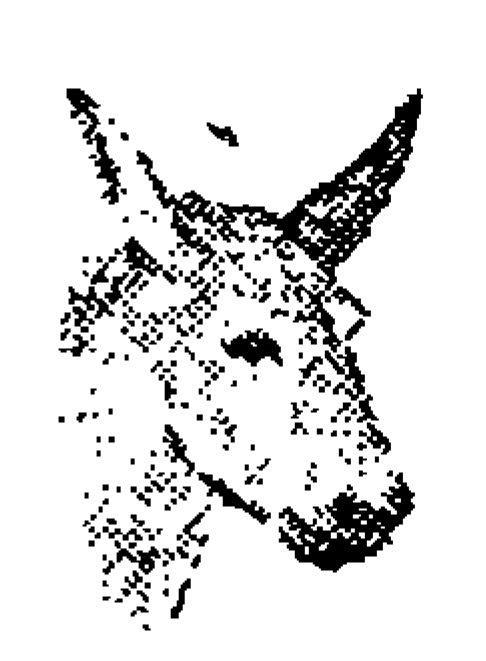
وسط لهفة الناس حول عزير نسينى الجميع تماما ..

انتهى الأمر وانسحبت من الصورة .. التف الجميع حول نبيهم الذى بعثه الله من الموت ونسونى انا ..

انفردت بنفسى بعيدا عن الناس وطالت وقفتى .. سمعت واحدا من اليهود يقول لزميله همسا ـ عزير ابن الله ..

ارتعشت عظامى من الهول .

اضطرنى هذا لكتابة مذكراتى والادلاء بشهادتى أمام محكمة التاريخ .



كلب أهل الكهف



اعطى الوفاء كله وارضى بأقل القليل .

نعــم ..

انا الوفاء الوفى ، المستوفى للوفاء ، القانع بالوفاء ، الراضى بأقل الوفاء .

انا قطمير .. كلب اهل الكهف النائم ٣٠٩ سـنة .. المستيقظ بعدها كمن نام نصف ساعة .. شكرا لله ان حدث ما حدث .. فقد كنت اوشك ان افقـد ايمانى بوجود العدالة على الأرض .. يتصور كثير من الناس أن الكلاب حيوانات لا تهتم الا بالأكل والنباح .. وهذا وهم .. ويتصور كثير من الناس أن الكلب شىء دنىء .. سبة او شتمة او شىء من هذا القبيل ، حتى ليقول الانسان الذى خلقه الله وكرمه لزميله يا ابن .. قاصدا تحقيره واهانتـه .. وهى ليست اهانة لنـا نحن الكلاب . .أن يكون المخلوق كلبا لا يعنى انه كفر.

ان الله سبحانه وتعالى اختار ان يخلقنا كلابا .. واختار ان يخلق غيرنا ناسا .. ولو أراد سبحانه أن يخلق من الكلب انسانا ، ومن الانسان كلبا لفعل ، ولا معقب على حكمه واختياره .. لماذا يسىء الينا النـاس اذن ، ويوردون أسماءنا فى شتائمهم .. لماذا ؟

سوف انبح محتجا على ما يحدث ـ اقول فى نباحى : هــذا ظلم ..

على اى حال .. ليس هذا هو الظلم الوحيــد الذى تخصص فيه الانسان .. لعل هذا ابسط انواع الظلم التى يمارســها . ولقد رأيت الوانا واشكالا من الظلم ، بدأت بمولدى واســتغرقت حياتى ، ولولا المعجزة التى وقعت لنا فى الكهف لقلت على العــدل السلام ..

ولدت ذات صباح مشمس فى خرابة نائية فى مدينة افسوس .. وحدد مولدى فى هذا المكان مستقبلى الى الابد .. هى مشيئة الأقدار ان اخرج الى الحياة كلبا ضالا ، وان اعيش فى مملكة ظالمة واوقات سوداء .. ارضعتنى امى ثم ماتت قبل أن تتم رضاعتى .. وقد وقع موتها على راسى وقوع الصاعقة ..

احكى لكم كيف ماتت أمى لتعرفوا نوع الايام السوداء التى عشناها .. كانت افسوس مدينة تعبد الاصنام ، وكان حاكمهــا كافرا بالله ، وكان اغلبية أهلنا من الامعات وفاقدى الرأى .. هى مأساة أن تولد فى مدينة أهلها بلا راى .. هذا يعنى أنك قد ولدت فى الجحيم .. انك لا تستبعد ساعتها ان يقع أى ظلم على راسك ولو كنت بريئا .. مادام الناس يكفرون بالله ، فهذا يعنى أن كل شىء مباح .. ليس بعد الكفر ذنب ..

راى أهل افسوس فجأة أن عددنا قد زاد .. هكذا قالوا .. قالوا زاد عدد الكلاب .. وهم ينبحون طوال النهار وطوال الليل فلا ننام .. وهم يأكلون من طعامنا ويعضــون أولادنا وينجســون معابدنا وينبغى أعدامهم جميعا .. هكذا قالوا ويعلم الله أنهم كانوا يبالغون ، ولو أن كل واحد منهم بدلا من ان يدخر فى بيته الطعام ويكدسه حتى يتلف ، ألقى الينا بكسرة من الخبز ، لوفرنا نباحنا وعشنا معهم فى سلام .. المهم انهم ادعوا أنهم لا ينــامون الليــل بسبب نباحنا ، ونسوا أن نباح ضمائرهم هو السبب فى أرقهــم

.. بعدها قرروا اعدامنا ، وخــرج الرجال المسلحون بالســيوف لاسكات النباح . انظر كيف يرتفع السيف ويهوى على الكلب منا فتذبح الصرخة قبل انطلاقها ، أو يعوى تصف كلب يرى نصــفه يختلج على بعد خطوات منه ..

كنت رضيعا لم اكمل الرضاعة ، حين دخلوا الخــرابة وهم يشرعون سيوفهم .

كنت ارقد بين حجرين فى الخرابة . نصـــف نائم ونصــف مستيقظ .. اخفتنى امى مع اخوين لى وذهبت الى السوق ، فلما عادت وجدتها تجرى وناسا يجرون وراءها وسيوفهم تقطر دما .. هوى السيف فطار ذراع امى وانكفأت على الارض متخبطة فى دمها وهى تنبح نباحا ضعيفا قالت لنا فيه :

ـ اختبئوا جيــدا ، فقــد جن اهل المــدينة وخرجوا يقتلون الكلاب ..

شاهدت مصرع امى امامى .. وتمنيت ساعتها ، رغم العــداء التقليدى بيننا بين الذئاب .. تمنيت لو كنت ذئبا له الف ناب والف مخلب والف روح .. ظللت ارتعش فى مكانى حتى ســكنت حركة امى وانصرف الرجال . بعدها خرجت من مكانى وناديت امى فلم تستيقظ قلت لها : اننى جائع اريد ان ارضــع فلم ترد .. كــانت ترقد وسط بحيرة حمراء .. واحدى قدميها تهتز هزات مختلجة وبقية الجسد ساكن .

وهكذا صادفت اليتم قبل ان اتم الرضاعة . وواجهت الحياة وحيدا منذ مولدى .. ولولا كلبة صــديقة لامى .. لولا صــدرها الحانى لما كنت احدثكم الآن .. ارضعتنى صديقة امى حتى كبرت. وقد رعيتها فى شيخوختها ، وكنت ادفن لها العظام والخبز حتى اذا جاءت تزورنى اخرجت لها الطعام واعطيته لها وجلست ارقبها واهز ذيلى وهى تأكل .

يعلم الله انني كنت اطعمها وانا جائع ..

لم أكن اطعمها لانها ارضعتني او انقذت حياتي في الصغر ..

أكون نذلا يفكر بعقلية المنفعة لو فعلت ذلك ..

كنت اطعمها وفاء لصلتها بأمي وصداقتها لها .. رحم الله امي ورحمهـــا ..

واجهتني مشاكل الدنيا حين كبرت ..

كان على ان اخرج الى الحياة ســاعيا وراء الشــمس واللقمة والحب ..

كانت الشمس هي المخلوق الوحيد الــذي يتصــف بالكرم في المملكة .. اما اللقمة فكانت شحيحة . إما الحب فكان متوافرا .. هذا النوع من الوفرة الذي يمحو مذاقه من الفم ، ويجعله بلا طعم .

من الصعب ان يتصور القارىء معنى الحياة القاســـية التي تعيشها الكلاب الضالة أو كلاب الســـكك كما يقولون .. حيــاة قاسية ، عليك فيها أن تدبر أمر معاشــك ، وامر هربك في الوقت المناسب .. من يدري .. قد تتكرر مذبحة الكلاب في اي وقت .. كل يوم تنام في خرابة تختلف عن الخرابة التي نمت فيها أمس .. ليس هناك استقرار ، وهناك هــذا الخوف الغامض المجهول من الغد .. وهناك هذا الاحساس الدائم بالمطاردة .. أن تكون دائما موضع مطاردة ، يعني أن تنخلع من صفاتك وتتحول الى كتــلة من الرعب المتحرك الذي ينتظر أهون اشارات الخطر ليجري .. حياة مرعبة .. مثيرة ، ولكنها مرعبة .. تعرفت في هذه الحيــاة على رجل قدر لي أن ألعب دورا في حياته ، وقدر له أن يلعب دورا في حياتي .. تم هذااللقاء والتعارف في احدى الخرائب .. لاحظت أن هناك رجلا من الرعاة ، يلجأ بأغنامه لاحدى الخرائب ، وهناك يترك أغنامه ويصلي .. اقتربت منه يوما وهو يصلي فســمعته

يمجد الله ويدعوه الها واحدا لا شريك له .. ادركت بفطرتى السليمة اننى امام رجل مؤمن .. وجلست الى جواره حتى انتهى من صلاته والتفت الى .. بصراحة .. لم اشعر بالخوف منه . انتهى من صلاته فأخرج طعامه وجلس يأكل .. رغيفا من الخبز وقطعة من اللحم .. رمقت قطعة اللحم فلم أجد فيها اى قطعة من العظام ، انتابنى اليأس ورغم ذلك هززت ذيلى ، رآنى اهز ذيلى فأخرج قطعة اللحم من فمه قبل أن يأكلها ونظر الى .. هززت ذيلى اكثر .. مد الى يده بقطعة اللحم وهو يسألنى بلطف هل احس بالجوع ..

هززت ذيلى اكثر ، ولكننى لم اتحرك من مكانى .. من يدرى .. ربما كان لطفه البادى كمينا لاصطيادى ، وربما كان يسخر منى .. لا داعى للأمل ..

مد الراعى الى يده بقطعة اللحم .. هززت ذيلى بمرح اكثر . ولكنى لبثت جالسا فى مكانى .. اردت ان اعض نفسى لاعرف هل انا نائم ام مستيقظ .. لا ريب اننى أحلم .. كثيرا ما حلمت بهذا المشهد .. رجل يجلس وفى يده قطعة من الخبز واللحم .. يأكل هو الخبز ويقدم الى اللحم ..

هو حلم لا ريب فى ذلك .. لكن الدنيا شديدة الحرارة .. ولسانى مدلى من فمى .. كيف يحس النائم وهو يحلم بلذع الحرارة .. اتكون الاحلام قد تطورت ؟ !

ادرك الراعى اننى لا اثق فيه ، فألقى الى بقطعة اللحم .. كان بينى وبينه ما يقرب من اربعة امتار .. طارت قطعة اللحم فى الهواء فرفعت راسى وادركت اننى لا أحلم . قفزت فى الهواء وصوبت فمى نحو الهدف والتقطت الهدية ..

جسمى كله يرقص .. ذيلى يرقص .. فمى يرقص ..

اسنانى ترقص .. معدتى ترقص .. الشمس ترقص ، والكون كله يغنى ..

آه .. ايها اللحم .. ما اعذب مذاقك ..

قلت للراعى وانا ارقص واهوهو :

ـ قطعة اخرى لو امكن .. هذه اول مرة اذوق فيها اللحم فى حياتى ..

ابتسم الراعى ابتسامة خجلة ، فأدركت ان قطعة اللحم التى اكلتها كانت هى كل طعامه .. جريت نحوه ورحت اقبل قدميه واشم رائحته واهز ذيلى .. سجلت رائحته فى عقلى واقسمت أن اعيش وفيا لهذه الرائحة حتى الأبد ، ويوما آخر بعد الابد ، وساعة اخرى بعد هذا اليوم ..

انصرف الراعى فانصرفت وراءه .. حاول ان يهشنى لأرجع، ولكننى اصررت على خدمته .. قررت ان احرسه وانبح له واحمى غنمه واسهر الليل كى لايصيبه مكروه .. حاول طردى ، ولكننى التصقت به وانا اقبل قدميه فتركنى اتبعه .. فوجئت بأنه يتوجه نحو قصر الملك .. تشاءمت ، ولكننى دخلت معه وحولنا الخراف لقصر الملك ..

اتضح انه متعهد توريد الخراف للقصر ..

يومها التقيت فى قصر الملك بقصة حبى على الأرض ..
التقيت بكلبة الاميرة « بريسكا » ..

رائع .. رائع .. اقصد قصر الملك من الداخل . تذكرت الخرابة التى اعيش فيها ، وقارنت بينها وبين حديقة القصر ، زاد احساسى عمقا بالفوارق الطبقية .. نعم .. كلب مثقف انا .. تثقفنا تجاربنا فى الخرائب ونقرأ آلام الدنيا عمليا ونجرب .

شاهدت فى حديقة القصر الملكى تمثالا لكبير آلهة المدينة ، تذكرت فجاة اننى شربت كثيرا من المــاء ، جريت نحــو التمثال ورفعت قدمى و « عملتها » .. خرجت لى كلبــة ســمراء من الحــديقة وهوهوت .. هوهوة مدللة ضعيفة من هوهوات القصور . قلت لها : لماذا تهوهوين ؟. قالت : كيف تجرؤ ، الا تعلم ان هذا تمثال كبير الآلهة المعبودة فى إفسوس . قلت لها : كبير الآلهة والا صغير الآلهة .. كنت محصورا يا ســتى فلا داعى للهوهوة والخوتة . قالت : يقتلك حرس القصر لو علموا انك لوثت معبودهم . قلت هامسا : انت كلبة لطيفة ولن تقولى لاحد .. هل تصدقين خرافات الناس .. اليسوا حمقى حين يعبدون الحجارة .. قالت : انت اول مخلوق شجاع اقابله فى المدينة .. ارجو ان تسجل اعجابى بك .. قلت لها : سجلت الاعجاب واشــكرك . قالت : من أين انت قادم ، ولماذا انت نحيف لهذا الحد . عظامك تبرز من لحمك .. انت مضحك .. قلت لهــا : قادم انا من احــدى الخرائب ، التحقت بخدمة الراعى اليوم . السر فى نحافتى هو سوء التغذية وبخل الناس وغلاء الاسعار وندرة اللحم .. تصورى اننى لم اذق طعم اللحم فى حياتى الا اليوم .. اعطانى الراعى نصيبه من اللحم .. قالت : ارجو الا تشير امامى الى اللحــم أو تذكر ســيرته .. سئمت من اكل اللحم كل يوم واتوق لقطعة من العظام .. بدات أعتقد انها مجنونة قليلا .. قررت معاملتها بحذر أكثر .. قلت لها : تقولين اكل الحم كل يوم .. هل تأكلين اللحم كل يوم ..

قالت نعم .. قلت اليس لديك بعض اللحم الفائض .. قالت : لحم الغداء ملقى فى الصحن لم امسه .. قلت هــل إســتطيع أن ارى هذا الصحن .. قالت سر ورائى فسرت . وصلنا الى طبق كبير يمتلىء باللحم .

اشارت الى الطبق وقالت تفضل بأكله كله .. قلت لها اياك ان تهوهوى بعد أن آكله او تتهمينى بالسرقة .. لا أريد أن أسىء

الى الراعى .. قالت انت تخاطب ناهيش كلبة الأميرة بريسكا ..
وما تقوله عيب .. حنيت راسى على الطبق وزلطت اللحم زلطة
واحدة . لم يكن لدى وقت للمضغ . من يدرى ماذا تأتى به
اللحظة التالية .. بعد غمضة عين كان الطعام قد تبخر .. قالت
الكلبة كيف تأكل بهذه السرعة .. انت مفجوع .. ! لقد قررت
ان اتزوجك .. اكتشفت اننى أحبك . ايكون هذا هو الحب من
اول نظرة .. قلت لها اعتذر عن الزواج واشكرك على الحب ..
ليس فى قلبى مكان للحب . عندما يستغرق السعى وراء اللقمة كل
طاقة المخلوق ، يصبح من العسير عليه أن يحب . الحب ترف
لايقدر عليه الفقراء من أمثالى .. قالت حالمة : شجاع ونحيف
ومفجوع وفيلسوف .. زاد حبى لك . دعنى أشم رائحتك .
تفوح منك رائحة البنفسج . قلت لها فى الخرابة شجرة بنفسج
فعلا . كنت اتصور ان الترف قد أفقدك حاسة الشم .. قالت :
يدور راسى كلما رايتك تقف جوارى . هاودنى وتزوجنى . قلت
لها وانا أجرى بعيدا عنها : اسمع سيدى ينادينى فمعذرة ..
هرعت الى الراعى . وكان الملك مهتاجا يصرخ فى الراعى : لم ارك
مرة واحدة تسجد لالهنا ايهاالراعى . راقبتك وانت تمر على تمثال
الاله فى الحديقة ورايت كيف تجاوزته دون سجود هل جننت

قال الراعى : ضعف نظرى يامولاى فلم أر الهك الموقر .

ارتعشت فى مكانى . ماذا لو علم الملك اننى تبولت على صنمه
المعبود . عاد الملك يقول وهو مهتاج : هذه مملكتى انا . ولن يعبد
فيها غير الاله الذى احدده انا . وليس للناس رأى غير رايى انا .
لقد قررت ان يكون حد السيف هو الرأى المطاع فى المملكة ..
وسوف احاسب حتى على الاحلام والافكار التى تدور فى الرؤوس.

قال الراعى : وفق الله الملك فى خططه المستقبلة . ست قطع
من الذهب للعجول والخراف والماعز .. أحضرت اليك عجلا سمينا
أرجو أن يدفىء بطن مولاى .

اراد الراعى الانصراف فسأله الملك بدهاء مفاجىء .

ـ ايها الراعى .. اراك تحدث وزيرى كثيرا هذه الأيام .. اى شىء يجمع بين راعى غنم ووزير من وزراء المملكة ؟ . ارتعش الراعى ولاحظت ارتعاشته .. خرجت من جسده رائحة خوف مفاجىء استطيع تميزها .. أدركت ان الراعى مهدد بشىء لا ادريه .. وقفت ونبحت ضد الملك .. أسكتنى الراعى باشارة من يده وقال للملك :

ـ لا شىء بينى وبين الوزير ايها الملك .. كان يريد .. كان يريد .. نعم .. تذكرت الآن .. كان يريد توريد اللحم لبيته .

قال الملك بدهشة : لست اعرف ان الوزير من هواة اللحم .. يقولون انه نباتى لا يأكل اللحم .

قال الراعى وقد عاد اليه الهدوء : ولكن اسرته تأكل اللحم .. لم أكن أعلم ان وزير المملكة نباتى ..

قال الملك فجأة : تستطيع أن تنصرف ايها الراعى ..

القى اليه الملك ثمن الماشية وانصرفنا .. لم يذهب انراعى مباشرة الى بيته .. مر على أكثر من بيت وراح ينقر عليها نقرات خفيفة . بعدها البسنى حول رقبتى طوقا من النحاس وتركنى فى حديقة بيته المقفرة . وجاء منتصف الليل فانسل الراعى من فراشه الدافىء وتبعته . خرج من المدينة قاصدا الجبال القريبة فمشيت وراءه . دلف الى مكان يقع بين جبلين فدلفت معه . كان هناك ستة رجال .. بعضهم رايته فى قصر الملك . وبعضهم لم اره من قبل . احتضنوا الراعى وقبلوه وبدأ حوارهم الهامس .

قال الراعى : ادركت من سؤال الملك اليوم انه يعرف الصلة بينى وبين وزيره .. يبدو أن الملك يشك فى شىء .. ارى ان نتصرف بسرعة .

قال احدهم : جن الملك . وغـدا يبـدا ارهابه . قال رجـل آخر : لقد قرر ان يمزق كل من يعبد الها غير آلهته المتعددة . قال الثالث : نحن جميعا معرضون لخطر الذبح او الرجم .. وتساءل رابع عن الخطوة التالية . قال الراعى : أرى ان ننتظر الى الغـد ثم نجتمع هنا فى نفس الموعد . اذا نفذ الملك تهديده تركنا له المملكة وهاجرنا . اعرف كهفا قريبا نستطيع ان نقضي فيه النهار . فاذا جاء الليـل تسللنا خارج المدينة .. انتهى الاجتماع فانصرفنـا فرادى .

نام الراعى فقلت اذهب الى تاهيش فى القصر .. ذهبت اليها فوجدتها تنتظر . قالت لى وانا انصرف : اعطنى شيئا اتذكرك به يا حبيبى الى ان اموت . خلعت لها الطوق النحاس من رقبتى . كان يضايقنى . انصرفت . لم اكن اعرف أن هـذه هى المرة الأخيرة التى اراها فيها .

تنفس الصباح وانعكست اشعة الشمس على برونز السـيوف وهى تحصد الرقاب لمجرد الشـبهة . قرر الملك أن يقنع النـاس برأيه مستخدما سيوف جنـده كأداة مبـدئية للاقنـاع . كانت سلطات المدينة تقبض على الناس وترجمهم قتلا بالحجـارة .. ثم تقيم لهم بعد ذلك محاكمات عادلة يحكم عليهم فيها بالاعدام . فاذا سأل القاضى أين المتهمون الذين يحاكمهم لتنفيذ عقوبات الرجـم فيهم .. حدثوه ان سيف الملك سبق عدل القضاة .. ويصـفق الحاضرون اعجابا بعدل الملك وسرعته . وهـكذا تطايرت رؤوس كثيرة ، ورجم ناس كثيرون ، ووجدت نفسى فى مأزق . ان الراعى مهدد هو الآخر بافتضاح أمره ورجمه . ولن تسلم رقبتى بصفتى كلبا يعيش معه . ما العمل اذن . هل اهجره .. أكون خنزيرا لو فعلت . انا كلب صـفته الاولى هى الوفاء . قلت فى نفسى : لن اهجره ولو تطايرت رقبتى الف قطعـة .. على العكس .. زاد حبى له وزادت بنفس الدرجـة دهشتى من اهل المدينة . انهـم يشاهدون انبل من فيهم يقتـل فلا يحركون سـاكنا .. تطورت

الاحداث بسرعة شديدة .. سمعنا خبطا على باب الراعى فهوهوت .. فتح الراعى الباب .. دلف منه ستة رجال .. من بينهم وزيران للملك . قال الرجال الستة للراعى الى الكهف ايها الراعى .. أسرع .. ليس هناك وقت .. واسرعنا وراء الراعى الى الكهف . أمرنى الراعى أن اجلس على باب الكهف من الداخل . وان أحرسهم جيدا وانبح اذا اقترب احد .

لم أكن اريد ان انام .. هذه اول مهمة رسمية يكلفنى بها الراعى ويجب أن اثبت وفائى .. سمعت احدهم يقول : « **ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا** » ..

سمعتهم يقولون « **ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا . واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا** » .

تفرق الرجال فى الكهف ورقدوا ..

كانت مهمتى هى حراستهم . بسطت ذراعى بالوصيد واتخذت وضع الحراسة ..

اغمضت عينا وفتحت عينا وقلت احرس هؤلاء المؤمنين بالله .. ثم وجدت عينى المفتوحة تنغلق من تلقاء نفسها .

رحت فى النوم .. استيقظت اول واحد .. وجدت نفسى ميتا من الجوع .. وجدت شعرى قد نما حتى ادهشنى منظره .. ما هذا . أنكون قد نمنا اسبوعا .. نبحت اوقظهم فاستيقظوا .. خرجوا الى باب الكهف فرأيتهم فى الضوء وازدادت دهشتى . كانت لحاهم قد طالت لاقدامهم ، وكان شعرهم يسترسل وراء ظهورهم ويجرجر على الأرض مثل طرحة العروسة . كان منظرهم

مرعبا .. اردت ان افر منهم لولا اننى تشممت رائحتهم فوجدتها كما هى لم تتغير .. بداوا يتساءلون بينهم « **قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما او بعض يوم ، قالوا ربكم اعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هـذه الى المدينة فلينظر أيهـا أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا . انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا** » .
تقرر اختيار الراعى للخروج وخرجت معه ..

بصراحة .. كدت افقد عقلى .. اين ذهبت افسوس .. اين ذهبت البيوت والقصور والدور والخرائب .. كانت هناك مدينة ثانية . وملابس ثانية . وكلاب لا تشبه الكلاب التى تركتها قبل أن انام . التف الناس حول الراعى وراحوا يشيرون الى ملابسه ويتهامسون .. اهذا سائح جديد .. ما الذى يرتديه .. لماذا طالت لحيته هكذا .. انظروا الى كلبه هو الآخر .. انظروا لشعره الطويل راحت الكلاب تنبح حولنا ثم تفر مذعورة كأن الف شيطان يطاردها . دخلنا مطعما دلنا عليه الناس واشترينا قليلا من اللحم والخبز . وعد الراعى يده فى جيبه واخرج قطعة ذهبية من القطع الست التى اعطاها له الملك قبل أن نلجأ الى الكهف وننام .. لم يكد البائع يرى عملة الراعى حتى صرخ : عملة اثرية . من أين احضرتها أيها الرجل الغريب . هل عثرت على كنز . زاد اللغط وتكأكأ الناس حول الراعى فقلت : اطير الى ناهيش فهى وحدها التى تستطيع أن تحدثنى عن الحقيقة . كان هناك قصر آخر بدلا من قصر الملك الذى تركته . لم يزل بهو الأعمدة على حاله وان كان قد تكسر وأدركته الشيخوخة .

نبحت قائلا : ناهيش .. اين انت ياناهيش . خرجت لى كلبة سمراء وتساءلت : من الذى يدعو جدتى من اعمق اعماق الموت . ملأتنى الدهشة .

كانت هى ناهيش بعينها ..

قالت الكلبة : إنا ناهيش الصغيرة .. خيل الى انها تتدلل على فاقتربت منها فتراجعت كأننى شبح ، ماذا تريد منى أيها الكلب الغريب الذى خرج من التاريخ عائدا الى الزمن . قلت بنفاذ صبر : ما هـــذه الفلسفة يا ناهيش .. اين ذهب حياؤك القديم .. أين ذهب صفاء عينيك . قالت ضاحكة : كله الا الحياء وصفاء العينين .. من أنت وماذا تريد . قلت لها صارخا متوجعا : أهكذا تغيرك ليلة واحدة .. أيها الوفاء الذى التصق زورا بجنس الكلاب .. فى اى بحر من بحار الغدر ترقد .. قالت بدهشة :

لماذا تبكى هكذا وانا لم ارك قبل الآن . ادركت انها تنكرت لى .. يحدث هذا كثيرا فى دنيا الكلاب .. قلت لها بألم وتوجع : تتنكرين لى بعد كل ما حدث ؟ ان السماء تنشـــق داخل قلبى ، والنجوم تهوى محترقة . والشمس تنطفىء . أمات حبك لى قبل أن نهضم طعام العشاء . حمدا لله أننى لم أتهدم . لم أنهر . لم أتزلزل . لم أزل أتنفس .. لم أزل حيا لأنك لا تزالين حية .. هاووو هاوو .

قالت منتشية : كلام لم يقله لى كلب فى حياتى قط ، على كثرة من عرفت من الكلاب . ما الذى فعلته لك لتعوى هذا العواء ، كيف اخونك وأنا لم أرك غير الآن .. حركت رقبتها فرايت الطوق المعدنى الذى اهديته اليها ليلة زواجنا . قلت لهـا : كيف تحتملين مس الطوق على رقبتك . الا يحرقك نحاسه .. تخونين من اهدى اليك الطوق ، ثم تلبسينه بكل التبجح .. قالت وهى تتراجع : آه .. ادركت حكايتك .. ليس هذا الطوق ملكا لى . هذا طوق كلبة الأميرة بريسكا . وقد ماتت منذ ثلاثمائة عام .. توارثناه منهـــا جيلا بعد جيل .. يا الهى .. تقول انك اهديت اليها الطوق ..

هل إنت قطمير .. هل انت الكلب الذى احبته وماتت وهى تعوى مقسمة على الوفاء له .. هل إنت ..

لم اسمع بقية حديثها .. احسست أننى إنهار واتقوض .. بدات الحقيقة تسطع فى عقلى وتغزو كيانى فجأة . اذا كانت ناهيش قد ماتت منذ ثلاثمائة عام ، فهذا يعنى أننا نمنا اكثر من ثلاثمائة عام ..

ارتعش داخلى شيء وبدات إفهم .. ذهب صنم الاله المعبود من أفسوس . هذا معناه أن الايمان هو الذى انتصر . انكون قد نمنا ثلاثمائة عام لنكتشف هذه الحقيقة .. بالنسبة لى ، كانت ناهيش قد ذهبت .. ضاعت .. ماتت . وكان هذا كل ما يعنينى من الأمر .. انخرطت فى بكاء عميق ودفنت راسى فى الأرض وعويت .. قالت حفيدة ناهيش وهى تقترب منى اكثر : يا إلهى .. الهذا الحد إحببتها .. كنت اتصورك تتحدث الى .. ظننت انك تغازلنى انا .. لماذا خفق قلبى حين رايتك .. ايكون الحب قادرا على الاستمرار رغم الزمن .. لماذا لا تكلمنى .. يقتلنى تجاهلك لى .. انا اجمل من جدتى ناهيش .. انظر كيف قصصت شعرى على الموضة . كانت كلماتها تصل الى عقلى مختلطة بصوت بكائى .. قالت حفيدة ناهيش وهى تضع رأسها على صدرى .. حاول ان تنساها .. انظر الى وحاول نسيانها . إزحتها وعدت الى الكهف .. نادتنى حفيدة ناهيش .. هوهوت لى بحب ، توسلت وهزت ذيلها ، ولكننى كنت غريقا فى بئر من الأسى العميق والحزن الأسود .. ذهبت ناهيش . لن اسمع صوتها بعد اليوم . لن اشم رائحتها . لن تلمع عيناها بالحب .. خيل الى أن طرقات المدينة تجهش بالبكاء .. طاردتنى كلاب المدينة وكانوا يهوهوون ثم يفرون أمامى مذعورين .. زاد احساسى بالوحدة واليأس ورايت اقدامى لا تكاد تحملنى الى الكهف . تحاملت على نفسى حتى وصلت ..

رايت إهل الكهف وقد اصابهم ما أصابنى . كانوا ذاهلين يتبادلون حوارا متقطعا لاهثا يتخلله صمت غريب .. جريت الى الراعى ورميت نفسى على قدميه واجهشت بالبكاء ، لم يعد لك غيرك فى الدنيا ايها الراعى .. ذهبت ناهيش .. ماتت .

مد الراعى يده الى راسى وراح يربت عليها .

كان راسى يدور ..

سمعت الراعى يسأل الوزير : كم قالوا اننا لبثنا فى الكهف .

قال الوزير : ثلاثمائة عام وتسع سنوات .

قال الراعى : كيف نمنا كل هذه الحقبة ..

قال الوزير : هذه إرادة الله .

قال الراعى فرحا كمن اكتشف شيئا : اطلعنا الله على عاقبة امره فى المكذبين ..

قال الوزير : صدقت ايها الراعى .. انهزم الملك وسقطت آلهته .. من كان يتصور .

قال احدهم : قد علمنا الآن اى الحزبين احصى لما لبثنا امدا ..

قال احدهم : اقول لكم شيئا .. لقد احسست بالغربة فى المدينة .. عدت الى الكهف كمن يعود الى بيته . مات إبنائى وزوجتى ولم يعرفنى فى المدينة احفاد احفادى ، ذكرتنى فجيعته بفجيعتى فهوهوت معولا ..

تذكرت ناهيش القديمة ورحت اقارن بينها وبين حفيدة حفيدتها فازداد حزنى على القديمة ..

اقتربت اصوات عديدة من الكهف فنسيت حزنى وقفزت الى باب الكهف ونبحت .

كان ملك المدينة الجديد ووزراؤه وكبار حاشيته يتقدمون شعب افســـوس كله .. كانوا قادمين الى الكوخ وهم يمسكون بأيديهم اغصان الزيتون والزهور والورود . من المدهش ان حفيدة ناهيش كانت معهم ..

لم اكد ارى هــــذا الجمع حتى نبحت مرتين بعنف فتوقفوا جميعا . اشار الملك لى : معهم كلب .. ما اعجب ما حدث ..

قال احد وزرائه : نام الكلب مع القديســـين ثلاثمائة عــام وتسع سنوات .. عاودت النباح فوقفوا فى مكانهم جامدين . رفع احد حراس الملك سيفه يخيفنى فازداد نباحى . قال الملك وهو يعترض يد حارسه .

ــ اياك أن تمس هذا الكلب المبارك .. لقــد نام معهم طوال الفترة التى ناموها .. ثم اننا لا نقتل الكلاب بغير جريمة .. من يؤمن بالله لا يؤذى مخلوقاته الأضعف . ادركت أن العدالة قد عادت الى الأرض فكففت عن النباح .

حين عاد الايمان بالله عادت معه العدالة .

صاح الملك : ايها القديسون .. ليخرج منكم أحد . ان الملك افسوس هو الذى يخاطبكم . خرج الراعى وخرج بعده رفاقه .

انحنى الملك ووزراؤه وحاشيته وانحنى الشعب لنا ..

قال الملك : ايها القديســـون المباركون .. نريد ان نســمع قصتكم .

كنت اعرف القصـــة فانصرفت الى باب الكهف وجلست .. جاءت حفيدة ناهيش تقول لى : لماذا تجلس وحــــدك .. الم تزل تذكرها .

قلت : لم انم غير ليلة واحدة .. فكيف انسى فى ليلة واحدة .

قالت : بل نمت سنين عددا .

قلت : نامت عيناى وظل قلبى يقظا فكيف انسى .

قالت : فيلسوف إنت يا قطمير ..

قلت هامسا : كانت تسمينى فيلسوفا ومفجوعا ..

قالت حفيدة ناهيش : ماذا تقول .

قلت : ابدا ..

قالت : اراك تشيح براسك عنى .

قلت : لم يزل قلبى مشدودا اليها ..

قالت : الوفاء طبعك الأصيل يا قطمير .. لكنه وفاء يجرح قلبى .. اتراك لم تعد كلبا ..

قلت : لست أعرف .. لقد متنا ولم نمت .. نمنا فكيف نمنا ثلاثمائة عام وتسع سنوات ..

اغمضت عينى وفتحتها فاذا العصر غير العصر والمدينة غير المدينة والناس غير الناس .. ان آية الله حين تقع تثير دوار العقل والقلب .. وعقلى يدور وقلبى ينسكب فى صدرى كالماء ينسكب لم أعد احس اننى انتمى لجنس الكلاب على الأرض .. انهم يفرون منى ... يهربون .

قالت : ولكننى لا افر منك .. إنت الذى تفر منى .

قلت : النتيجة واحدة ، والغربة اصلا متحققة ، وفرارهم منى هو السبب فى فرارى منك .. والنوم فىالكهف يفصل بيننا ، لم اعد ملكا لزمانك اى زميلة الهوهوة ..

حيل بينى وبين هذا العصر عندما أغمضت عينى فى الكهف ..

إنا ملك للتاريخ .. صرت ملكا للتاريخ .. صرت آية من آيات الله أنا المخلوق البسيط القريب من الأرض .

اننى ارتعش بالغربة والدهشة وشىء من العظمة .. لا انكر .
يزيد حزنى على جدتك ناهيش ويزيد فرحى فى نفس الوقت ..
ولد فرحى الآن فلماذا ولد . اترانى فى الطريق اليها ..

خيل الى اننا ندخل باب الكهف من جديد ، لننام بحق هـذه المرة ..

خيل الى أن ناهيش هناك .

فى هذا الركن الساكن المظلم الرائع .

والقيت بنفسى فى ظلام النور .



عنكبوت الغار



انا عنكبوت ولا كل العناكب .. لو وضعت عناكب الدنيا فى كفة ، لرجحت كفتى ولا فخر .. لست فى مجال الادعاء والتفـــاخر .. انما اذكر الحقائق .. لا اظن إننى احتاج لتقديم نفسى الى القارىء .. فهمتم .. فهمتم اننى عنكبوت الغار الذى اختبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . . انا المسئولة عن نجاة الرسول . . انا التى حميته .. نسيجى رقيق هفهاف تطيره اقل هبة من هبات الهواء ، ورغم هذا النسيج الضعيف .. وقفت امام حديد السيوف الكافرة التى خرجت تطارد النبى ، واستطعت ان اهزمها . اســـفر الصراع بين حرير العنكبوت الضعيف وحديد السيوف عن هزيمة الحديد .. انهزم الحديد امام الحرير .. وجلست فى بيتى الذى يضرب به المثـل فى الضعف .. ان أوهى البيوت لبيت العنكبوت . جلست فى بيتى احمى بيت الاســـلام الكبير وأحرس نبى الله محمد بن عبـد الله صلى الله عليه وسلم .

ليس هذا فحسب ما وقع لى .. وقع لى ما هو أروع من ذلك . رايت النبى .. اعرف أن هذا النبى عندما يموت ، سيقصد قبره الملايين للبكاء والدعاء .

وسيتصور كل واحد من الباكين الداعين صورة لرسول الله فى عقله . انا رأيته .. عشت معه ثلاثة أيام .. عاش ضيفا فى حراستى ثلاثة أيام .. آه يدور قلبى حين أعاود تذكر أيامه .. كانت أياما مهيبة .. كنت أحب ـ قبل ان أراه العناكب والطعام والحياة .. بعد ان رأيته لم اعد استطيع ان أحب سوى الحقيقة .. تغيرت بعد ان رأيته .. هل رأيتم عنكبوتا تبكى قبلى . بكيت انا العنكبوت حين انتهت فترة ضيافتى له وخرج من الغار قاصـــدا المدينة .. قلت له يا رسول الله سوف افتقدك ..

لم يسمع ما قلته له عليه الصلاة والسلام .. عدت اقول له يا رسول الله اعطنى يدك اقبلها .. او دعنى اقبل طرف ثوبك .. لم يسمعنى ومضى .. غير أنه وهو يخرج من الغار اضطر ان يحطم بيتى الذى بنيته له .. لم افهم لماذا فعل ذلك .. احيانا أقول انه كان لا بد ان يحطم بيتى لكى يخرج .. كان بيتى انا باب الكهف .. وكان لا بد من فتح الباب .. ومد الرسول يده الى بيتى وأزاح حرير البيت بلطف ..

حاولت ان اقترب منه لأقبل يده .. لم يلاحظ أننى اريد ان اقبل يده .. استردها قبل ان انحنى عليها لتقبيلها .. وخرج . وانكفأت على الحرير الممزق الذى كان بيتى وقلت : مس الحرير يد رسول الله قبلى .. وبكيت ..

ظللت أبكى حتى ذاب بيتى فى دموعى .. وعاد الغار كما كان .. احكى قصتى من بدايتها .. أرجو ان يعذرنى القارىء لأننى مضطربة للغاية ..

كنت من عناكب الجبال . وعناكب الجبال هى أتعس العناكب حظا .. ان طعامنا الأساسى هو الذباب والحشرات . وقد ولدت فى كهف مهجور فى غار موحش فى جبل ثور .. وهو جبل من جبال مكة .. ومكة مدينة صغيرة لم أرها فى حياتى ابدا .. واحيانا نسمع

من الحمام وهو يطير تسبيحات نفهم منها ان هذا الحمام يعيش فى حمى بيت الله فى مكة .. وكنت احاول ان اتصـــور شكل مكة او منظر بيت الله فلا استطيع .. كنت اعيش حبيسة فى غار ثور . وهو غار موحش اثناء النهار مخيف اثناء الليل ، هو غار يقع جنوبا فى اتجاه اليمن ، ولا احد يزورنا ، حتى الوحوش تهرب من وحشة الجبل وتفضل عليه جبالا مأنوسة تضم غيرها من الخلائق .

باختصار .. كيف انا ســـيدة هذا الجبل ومليكته .. انا المنكبوت « مامو » ابنـة العنكبوت « موما » حفيدة العنكبوت « مماو » توارثنا الحياة فى هذا الجبل منذ ازمنة بعيدة .

وجاء يوم ..

كنت مدلاة من سقف الغار فى خيط من خيوط الحرير الذى صنعته .. وكانت الدنيا شديدة الحرارة ، فرحت أؤرجح نفسى ذهابا وايابا فى الغار .. ثم سمعت صـــوتا لا ينتمى لهذه الأرض وهو يسأل :

ـ من يسكن هذا الغار من مخلوقات الله .

انكشف الحجاب عنى وادركت اننى استمع لصوت سيد من الملائكة اوقفت نفسى عن الاهتزاز وحنيت جسمى كله وســـجدت سجود تحية .

رددت على الصوت الملائكى قائلة :

ـ تتشرف بالحديث اليك عنكبوت الغار مامو ابنة موما حفيدة مماو . قال الصوت الملائكى : اخرجى الى باب الغار .

حركت خيط الحرير الى باب الغار وخرجت .

قال الصوت : بعد قليل ، سيهبط الغار اثنان من رجال الله .. محمد صلى الله عليه وسلم ، وصاحبه فى الدنيا والآخرة ابو بكر .

سألت ـ ولم ازل ساجدة ـ : من يكون محمد صلى الله عليه وسلم قال الصوت : هذا آخر انبياء الله فى الأرض . ورحمة الله التى ارسلها للعالمين . . انت خادمته مع صاحبه ثلاثة إيام فى الغار .

سألت ودهشتى تتعاظم ـ ما الذى يجيىء به لهـذا الغار الموحش .

قال الصوت : ـ خرج مهاجرا تطلب القبائل الكافرة دمه . . كم يلزمك من الوقت لبناء بيتك على باب الكهف .

قلت وانا اقيس الزوايا : اربع ساعات من العمل المتواصل الذى تتخلله فترتان من الراحة . .

قال الصوت الملائكى آمرا : اشـتغلى بغير راحة . . ان الله يكلفك بأمانة الحراسة . . وتستودعك العناية الالهية مصـير الرسالة الخاتمة . . ومستقبل حضارة كاملة .

زاد سجودى وهمست ـ سمعا وطاعة .

انصرف سيد الملائكة . . وناديت الصمت والوحشة والانقطاع ان يحضروا . . وبدات أعمل . .

نظرت فى غددى السبع التى تصنع الحرير . . الغدد مليئة . . تأملت باب الغار . . الباب واسع . . رحت أقيس الزوايا وأحسب بسرعة من اى زاوية أبدا . . سأحتاج الى خمس دعائم صلبة من الحرير . . وسنخرج منها ستة وعشرين خيطا كدعائم تكميلية . . وسنحتاج الى خمسة وتسعين خيطا لتثبيت الجدران . . بدأت اصنع الحرير . . هذا النسيج الهفهاف أقوى من أى صلب يتحول الى خيط دقيق قطره واحد على ألف من البوصة . . هذا قطر خيطى انا العنكبوت . . لا يعرف الناس أن العناكب تسـتطيع أن تقيس الزوايا وأن تقسمها ، وأن تقدر متانة المواد وشدة الضغط ، وأن تحسب حساب آلاف المشاكل الهندسية المعقدة التى تواجه عملية

البناء .. لا يعرف الناس ان العناكب تنسج ضروبا من الحرير تقضى بها كل حاجة .. نستعمله شركا ومائدة وفراشا وملاءة لف وجهاز انذار وطريقا للفرار وقيدا وسبيلا للانتقال ودرعا للحماية هو اكثر المواد التى يصنعها مخلوق حى فى تعدد منافعه .

وما تفرزه غدد العنكبوت حرير ولا ريب كالحرير الذى تخرجه دودة القز ، ولكن هناك فروق بين حرير دودة القز ونسيج العنكبوت . وهذه الفروق تجعل نسيج العنكبوت افضل ، فهو ارق وانعم وامتن من اى حرير آخر .. فوجئت ان الرسول يدخل الغار مع ابى بكر .. توقفت عن العمل لحظة .. نظرت فى وجهه النبيل المهيب الذى يشبه صفحة الذهب ، واحسست بخشوع عميق .. بعدها قلت له : اهلا بك ومرحبا يا رسول الله ..

لم اكد أكمل تحيتى له حتى بدات انسج بيتى على باب الغار .. انحدرت انحدارا عموديا من فتحة الغار الى أرضه ، وانا اصنع خيط الحرير . ثم شددته وثبته فى الأرض بمادة حمضية إفرزتها من غدتى ، ثم صعدت متسلقة بسرعة الى باب الغار ، ورحت اهبط وارتفع واميل الى اليمين واليسار وانا انسج بيتى .. انتهى النسيج فى ثلاث ساعات وست دقائق وعشرين ثانية .

وصل الكفار الى باب الغار .. سيوفهم اللامعة تقف وجها لوجه امام حريرى العنكبوتى .. قال احد المشركين :

لو دخل هاهنا أحد ، لم يكن نسج العنكبوت على بابه ..
ابتسمت داخل بيتى ابتسامة واسعة .. قال ابو بكر للنبى بصوت خافت :

ـ لو نظر احدهم تحت قدمه لرآنا .

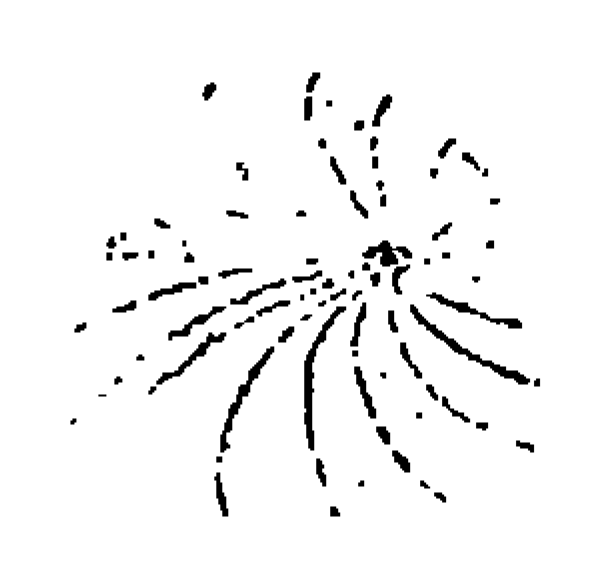
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لا تحزن ، ان الله معنا .

لم يكد الرسول يقول كلماته حتى امتلأ المكان بالملائكة فجأة . امتلأت بصوت يقول :

((الا تنصروه فقد نصره الله . اذ أخرجـه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار . اذ يقول لصاحبه لا تحـزن ان الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم)) .

لم يكد ينتهى الصوت حتى امتلأ الغار فجأة حولى بالملائكة .. فوجئت بملائكة تقف امام بيتى العنكبوتى وتقف خلفه .. سألت اقربهم لى .. ماذا حـــدث ؟. قال : جئنا بأمر الله نحمى نبيه الـــكريم .. قلت صـــارخة : ولكننى مكلفة بحمايته .. مكلفة بحراسته .. لماذا تكسرون قلبى .. لن يجرؤ أحد عليه .. انه ضيفى انا .. خادمته انا .. بكيت من فرط الانفعال فأدهشنى اننى استطيع ان ابكى .

التفت الى الرسول واردت ان أشكو له .. رأيته مشـــغولا بالصلاة .. كان يصلى وخلفه صاحبه أبو بكر ..
وسجدت معهما حين سجدا .



مراجع الكتاب

لاعتقادى ان هذا الكتاب فن من لون معين .. فقد استعنت فيه بنوعين من المراجع .

المراجع الدينية :

- قصص الأنبياء فى القرآن الكريم .
- وتفسير القرطبى والمنار .

وقد ورد ذكر غراب ابن آدم فى سورة المائدة .. آية رقم ٣١ .

وورد ذكر طير ابراهيم فى سورة البقرة .. آية رقم ٢٦٠ .

وورد ذكر ذئب يوسف فى سورة يوسف .. آية رقم ١٧ .

وورد ذكر حوت يونس فى سورة الصافات آية رقم ١٤٢ .

وورد ذكر بقرة بنى اسرائيل فى سورة البقرة آية رقم ٦٧ .

وورد ذكر هدهد سليمان فى سورة النمل آية رقم ٢٠ .

وورد ذكر دابة الأرض فى سورة سبأ آية رقم ١٤ .

وورد ذكر حمار عزير فى سورة البقرة آيات رقم ٢٥٩ .

وورد ذكر كلب اهل الكهف فى سورة الكهف آيات رقم ١٨ .

ولم يرد ذكر عنكبوت الغار الا فى السنة المطهرة . رواه احمد فى المسند .

المراجع العلمية :

The animal Kingdom موسوعة علمية من ثلاثة مجلدات لسبعة من علماء متحف التاريخ الطبيعى فى أمريكا . جورج جودوين ، وشالز بوجرت ، ودين امادون ، وتوماس جيليارد ،

وكريستوفر كوتس ، وجيمس اتز ، وجون باليستر .. تحت اشراف فريدريك دريمر . مطبعة جراى ستون . نيويورك .

- موبى ديك ــ رائعة ادبية تأليف هرمان ملفيل .
- دنيا الحيتان لروى تشابمان اندروز ترجمة د. محمد صابر سليم .
- دنيا الحشرات لفرديناندلين ترجمة د. احمد أبو النصر .
- عالم الطير فى مصر د. احمد محمد عبد الخالق .
- سلوك الحيوان د. احمد حماد الحسينى .
- اضواء على قاع البحر د. أنور عبد العليم .
- رحلات الحيوان والطيور .. مريدينى حنا .

الفهـــرس

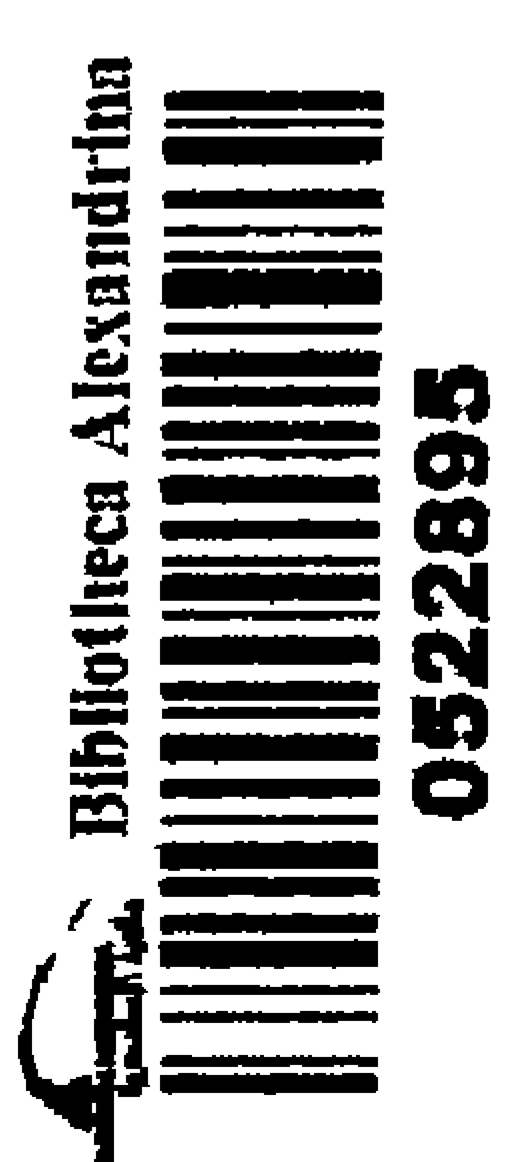
الفهرس

مطابع المختار الاســلامى
دار الســلام

يقدم لنـــا القرآن الكريم فى قصص الأنبياء والأولياء ، مجموعة من أفراد المملكة الحيوانية التى لعبت دورا فى التاريخ . الغراب الذى بعثه الله لابن آدم ليريه كيف يوارى ســـوأة اخيه الطير التى ذبحها ابراهيم الخليل ومزقها على قمم الجبـــال واستدعاها فجاءته تســـعى بقـــرة بنى اسرائيل التى أمر موسى بذبحها لكشف جريمة قتل الذئب الذى اتهم ظلما بالتهام يوسف هدهد سليمان الذى أطلعه على سبأ يقين من مملكة ســـبأ دابة الأرض التى كشفت أن الجن لا يعلم الغيب حين أكلت عصـا سليمان حمار عزير الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه أمام عينى صاحبه الحوت الذى ابتلع يونس فى جوفه ثم نجا منه بالتسبيح كلب أهل الكهف الذى نام مع أصحاب الكهف ٣٠٩ سنة وتقـــدم السنة المطهرة قصة العنكبوت التى نسجت بيتها على باب الغار الذى لجأ اليـــه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر .

فى هذا الكتاب .. يقدم احمد بهجت تجربة فريدة من نوعها حين يكتب قصص الحيوان الذى ورد ذكره فى القرآن .. من وجهة نظـــر الحيوان ذاته .. ملتزما بالبنـــاء الأصلى للقصة الدينية كمـــا وردت فى القرآن ، مستعينا بالموسوعات العلمية فى تحديد طباع الحيوان ، مطلقا العنان لفنه فيما بقى من مشاعر الحيوان وأحلامه ووجهة نظره .

نشرت فصول مختصرة من هذا الكتاب فى جريدة الأهرام وقراها مئات الألوف . وترجم ما نشر فى الأهرام الى اللغة الألمـــانية فى احدى الصحف الجامعية الألمـــانية .



مطابع المختار الاسلامى